العنوان:	أقوال الجاحظ في لتفسير وعلوم القرآن: عرضا ودراسة
المصدر:	أبحاث
الناشر:	جامعة الحديدة - كلية التربية بالحديدة
المؤلف الرئيسي:	الخضيرى، عبدالله بن صالح بن عبدالله
المجلد/العدد:	ع16
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2019
الشهر:	ديسمبر
الصفحات:	401 - 466
رقم MD:	1098236
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	EduSearch, HumanIndex
مواضيع:	القرآن الكريم، علوم القرآن الكريم، تفسير القرآن الكريم، التفسير الموضوعي، الجاحظ
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/1098236

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

أَقْوَالُ الجَاحِظِ فِيْ التَّفْسِيْرِ وَعُلُوْمِ القُرْآنِ
عَرْضاً ودِرَاسَةً

د. عَبْدُاللهِ بنُ صَالِحِ الخُضَيْرِي
الأُسْتَاذُ المُشَارِكُ بِكُلِيَّةِ الدَّعْوَةِ وَأُصُوْلِ الدِّيْنِ
جَامِعَةُ أُمِّ القُرَى

ملخص البحث:

ينطلق هذا البحث من قضية مهمة تتعلق بالتفسير الموضوعي حيث أشار بعض الباحثين إلى أن الجاحظ كان ممن اعتنوا بالتفسير الموضوعي و أسس قواعده، ومن هذا المنطلق قمت بتتبع كتابيه الحيوان والبيان والتبيين لبيان جهود الجاحظ في هذا المجال وقد وجدت أن المفسرين من أصحاب طبقات المفسرين قد عدُّوا الجاحظ عمرو بن بحر من المفسرين في طبقاتهم وهذا ربما يؤكده من ناحية ما ذهب إليه الباحثون ومن ثم فإني قد قمت بتتبع ما تعرض له الجاحظ في كتابيه ووجدت أن الجاحظ قد عني ببيان مفردة القرآن وببيان أسباب النزول ورجع إلى أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وتفسير الصحابة وأقوال التابعين كما كانت له عناية خاصة ببيان ما يتعلق بالتفسير المتكلف وما يتعلق بالتفسير الموضوعي، وقد خرج البحث ببيان أن الجاحظ كان ممن اهتم بالتفسير الموضوعي المتعلق باللفظة القرآنية والموضوع القرآني حيث كان يجمع مواردهما في الموضع الواحد ويرى الباحث ضرورة دراسة ما يتعلق باللغة والأدب من علماء وكتب وأثرها في التفسير.

Abstract:

This research stems from an important issue related to objective interpretation، where some researchers pointed out that Al-Jahez was the one who took care of the objective interpretation and foundations of its rules. Al-Jahez Amr ibn Bahar is one of the interpreters in their classes، and this is probably confirmed in terms of what the researchers went to. And sayings of Alt The research also came out with a statement that Al-Jahez was interested in the objective interpretation related to the Qur'anic word and the Qur'anic topic where he gathered their resources in one place. And their impact on interpretation.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: يعتبر الجاحظ من أهم الشخصيات التي أثرت المكتبة الإسلامية بالكتب الرائعة، فهو أحد أهم أساطين البيان العربي، تميز في كتاباته بالقوة والروعة، وبالرصانة والدقة، وبالدعابة والمتعة!

ولعل من أسباب دراسة هذا الموضوع ما ذكره الدكتور: مصطفى الجويني: (أن الفضل في بدايات التفسير الموضوعي يعود للمعتزلة بحجة أنهم أصحاب نظرة شمولية للقرآن الكريم)[(١)]، ولكنه استدرك بعد كلامه هذا بقوله: (لم يطبق الجاحظ منهج التفسير الموضوعي بتفصيلاته كما نفهمه اليوم)[(٢)].

وقد قمت بقراءة وتتبع كتاب الحيوان بالإضافة إلى كتاب آخر وهو البيان والتبيين – حتى يكون الحكم شاملاً– ومدى استيعاب الجاحظ للآيات ذات الموضوع الواحد في المكان الواحد، على أنه يُلاحظ أنني اكتفيت في بعض المواضع بذكر آيتين أو ثلاث – حتى لا يطول البحث، ولا شك أن الجاحظ قد تناول الكثير من الآيات في كتابه، وجمع فيما بينها في مواضع، لكن ضرورة طرق المواضيع تلجئه إلى تناول الآيات كغيره من القدامى والمؤلفين.

وقد تناول هذا المعنى محقق الكتاب عبد السلام هارون حين قال: (كما أفاض القول في آي الكتاب العربي، وحديث الرسول العربي -صلى الله عليه وسلم- وكما فصل بعض مسائل الفقه والدين)[(٣)].

كما أحب أن أشير إلى أن مجموع الآيات قليل بالنسبة لحجم الكتابين، كما أن هناك موضوعات لم يذكر فيها آية واحدة، وقد يقتصر على آية في موضوع متعدد، وهذا قد يعود إلى مدة تأليف الكتاب وحسب نشاط المؤلف واستحضاره للآيات، كما يلاحظ وفرة

---

(١) الجويني: مصطفى الصاوي، كتاب: مناهج التفسير ص ١٥٨ تاريخ النشر ١٣٩١هـ ١٩٧١م. ينظر: التفسير الموضوعي التأصيل والتمثيل. زيد عمر عبدالله العيص الناشر: دار مودة بالقاهرة، الطبعة الثانية من ص ٣٥-٣٨

(٢) الجويني: مصطفى الصاوي، كتاب: مناهج التفسير ص ١٦٠. مصدر سابق.

(٣) مقدمة كتاب: الحيوان، هارون؛ عبد السلام محمد، مصدر سابق، ص: ٢٩.

الآيات في بعض المواضع؛ كالآيات التي تتحدث عن الطير مثلاً، وموضوع الشياطين وكيف عرض القرآن حقيقتهم وأعمالهم.

والمتأمل في كتب الجاحظ يدرك في كثير من المواضع أن عرضه للآيات إنما كان بمثابة الاستشهاد والاستطراد فقط، ولعل ما حمله على ذلك هو حديثه عن بعض الحيوانات أو غيرها من القضايا والموضوعات التي عالجها في كتابيه وتناولها بالتأليف والدراسة، خلا مواضع معدودة تصلح في مقام سرد الأدلة فقط.

وقد رغبت في هذا البحث المتواضع أن أظهر جانب التفسير وعلوم القرآن عند الجاحظ، ومن ذلك ما يتعلق بالتفسير الموضوعي؛ وذلك للتأكد من مدى صحة ما ذهب إليه الدكتور الجويني من عدمها.

مشكلة البحث وتساؤلاته:

يمكن للبحث أن يجب عن الأسئلة الآتية:

- من هو الجاحظ وما العصر الذي نشأ فيه؟
- ما هو كتاب الحيوان؟ وما هو كتاب البيان والتبيين؟
- ما أقسام التفسير؟
- ما دور الجاحظ في التفسير؟

أهداف البحث:

يسعى الباحث من خلال البحث لتحقيق الآتي:

١. التعريف بالجاحظ ونشأته وعقيدته.
٢. التعريف بكتابي: الحيوان، والبيان والتبيين.
٣. ذكر أقسام التفسير.
٤. بيان دور الجاحظ في التفسير وعلوم القرآن وأثره في ذلك.

منهج البحث:

يعتمد الباحث على المنهج الاستقرائي؛ من خلال التقصي والبحث عن التفسير للآيات القرآنية في كتابي: الحيوان والبيان والتبيين للجاحظ، وتوزيع المادة العلمية على المباحث في خطة البحث.

حدود البحث:

ستقتصر الدراسة في هذا البحث على جانبي التفسير وعلوم القرآن في كتابي: الحيوان والبيان والتبيين للجاحظ دون غيرهما من الكتب.

الدراسات السابقة:

من خلال البحث والاطلاع وجد الباحث دراسات منها: -

-١-أثر الجاحظ فى القرآن وعلومه فى ج المستنصرة ١٩٨٦م-لمنال عبد الرزاق

-٢-البيان القرآنى عند الجاحظ ج الأزهر د-لهشام محمد هشام

لم أستطع الوصول إلى أي منها، كما وجدت كتباً أخرى تكلمت عنه على سبيل العموم، مثل:

١. دراسة: الجوزي عبد المجيد، بعنوان: مكانة العقل في فلسفة الجاحظ، وهي أطروحة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة، تخصص: فلسفة إسلامية، صادرة من الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية، بتاريخ: (٢٠٠٣-٢٠٠٤م).

٢. دراسة: بوشلاغم بشرى، بعنوان: ملامح نظرية النص عند الجاحظ من خلال: البيان والتبيين، صادرة من جامعة فرحات عباس –سطيف- الجزائر، بتاريخ: (٢٠١٠-٢٠١١م).

٣. دراسة: د. إبراهيم عوض، بعنوان: مع الجاحظ في الرد على النصارى، صادرة عن مكتبة زهراء الشرق –القاهرة.

هيكل البحث:

قسمت البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة، وتناولت في المقدمة مشكلة البحث وتساؤلاته، وأهدافه، ومنهجه، وحدوده، والدراسات السابقة، واشتمل المبحث الأول على ثلاثة مطالب هي: مولد الجاحظ ونشأته، ونبذة عن كتابي: الحيوان والبيان والتبيين، وأقسام التفسير، بينما تناولت في المبحث الثاني أقوال الجاحظ في التفسير. وقد جاء في تسعة مطالب.

وتناولت في الخاتمة أهم نتائج البحث، والتوصيات والمقترحات.

المبحث الأول: مولد الجاحظ وعقيدته والتعريف بكتابَيْه

المطلب الأول: مولد الجاحظ وعقيدته

اسمه ونسبه:

هو: عمرو بن بحر بن محبوب، أَبُو عثمان الجاحظ المصنف الحسن الكلام، البديع التصانيف[٤]، ولد سنة ١٥٩هـ بالبصرة، وهو أحد شيوخ المعتزلة، وقدم بغداد، فأقام بها مدة، وقد أسند عنه أَبُو بَكْر بْن أبي داود الحديث، وهو كناني، قيل: صليبة، وقيل: مولى[٥].

ذكره الداوودي في طبقات المفسرين فقال: عمرو بن بحر الجاحظ؛ صاحب التصانيف التي منها: **كتاب «نظم القرآن» وكتاب «المسائل في القرآن»**[٦]. **وهما كتابان مفقودان وإلا لتناولتهما بالدراسة ههنا**.

عقيدته:

عقيدة الجاحظ هي عقيدة المعتزلة القائلين بالأصول الخمسة وهي: التوحيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال ابن

(٤) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي، تاريخ بغداد، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي –بيروت، ط: ١، (٢٠٠٢م)، (١٤/ ١٢٤).
(٥) تاريخ بغداد، مصدر سابق، (١٤/ ١٢٤).
(٦) الداوودي؛ محمد بن علي بن أحمد، شمس الدين، طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية – بيروت، (د. ت)، (٢/ ١٦).

كثير: وفيها[٧] توفي الجاحظ المتكلم المعتزلي وإليه تنسب الفرقة الجاحظية لجحوظ عينيه، ويقال له: الحدقي، وكان ردئ الاعتقاد، ينسب إلى البدع والضلالات، وربما جاز به بعضهم إلى الانحلال؛ حتى قيل في المثل: يا ويح من كفره الجاحظ، وكان بارعاً فاضلاً، قد أتقن علوماً كثيرة، وصنف كتباً جمة تدل على قوة ذهنه وجودة تصرفه، ومن أجلِّ كتبه كتاب الحيوان، وكتاب البيان والتبيين، قال ابن خلكان: وهما أحسن مصنفاته[٨].

وفاة الجاحظ:

توفي سنة ٢٥٥هـ بالبصرة، قال ابن كثير: (ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائتين، وفيها توفي الجاحظ المتكلم المعتزلي وإليه تنسب الفرقة الجاحظية)[٩].

المطلب الثاني: نبذة عن كتابي الحيوان والبيان والتبيين

المسألة الأولى: محتوى كتاب الحيوان:

قد يتوهم القارئ لأول وهلة أن كتاب الحيوان مخصص لذكر الحيوانات وما يتعلق بها أو يمت لها بصلة، لكن عندما يتعمق في قراءته ويقلب أوراقه ويغوص في مواضيعه سيجد العجب العجاب.

سيجد موسوعة علمية وفكرية وثقافية، ويجد نموذجاً رائعاً في تجسيد ثقافة العصر العباسي الأول، المتشعب العلوم والفنون في كل مجالات الحياة الفكرية والثقافية والعلمية، بل والصنائعية.

يمكننا تلخيص محتوى هذا الكتاب في الآتي:

١. المعارف والفنون: حوى هذا الكتاب طائفة من المعارف والفنون وتحدث عن سياسة الأفراد والمجتمعات، كما تكلم عن الفرق والطوائف والملل والنحل. كما تحدث عن الأمراض التي تصيب المجتمع الإنساني والحيواني ويعدي البيئة كلها. وبما أنه قد تحدث عن الداء فإنه لم يهمل الدواء بل قد فصل في الأدوية النباتية والحيوانية كذلك.

(٧) أي: في سنة (٢٥٥ه).
(٨) ابن كثير؛ إسماعيل بن عمر؛ أبو الفداء، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: ١، (١٩٨٨م)، (١١/ ٢٥).
(٩) البداية والنهاية، مصدر سابق، (١١/ ٢٥).

٢. المفاضلة بين الحيوانات: يتكلم الجاحظ عن المفاضلة بين الديك والكلب، ويحشد أدلة الفريقين من الشعر والأدب والقصص والأمثال، ويذكر من هجى بأكل لحوم الكلاب ولحوم الناس. كما يتكلم عن الحمام والهدهد والغراب والخفاش والرخم والطير وما ورد فيها من أمثال وأشعار وذم ومديح. ولا ينسى الحديث عن الذبان والنمل والذر وأجناسها، وما ورد فيها من قرآن ومن أشعار ومديح وذم. ويتكلم عن القرد والخنزير ولماذا مسخ بعض بني إسرائيل قردة وخنازير، كما يتكلم عن الحيات وأعاجيب أمرها وما ورد فيها من قصص وأمثال وأشعار.

٣. الأعلام والقبائل والأمم والطوائف والبلدان: تحدث الجاحظ عن العرب وعاداتهم وتقاليدهم ومعارفهم، كما تحدث عن خصائص البلدان، وتعرض لبعض القضايا التاريخية.

٤. الشعر واللغة والبيان والأمثال: احتوى كتاب الحيوان على مجموعة كبيرة من صفوة الشعر العربي، كما تحدث فيه عن اللغة الأمثال والبيان، بأحسن عبارة، وألطف بيان.

٥. الفكاهة والدعابة والطرفة: اشتهر الجاحظ بروح الدعابة والفكاهة؛ فهو مليح الطرفة، كثير الدعابة، لذا فقد نثرها في الكتاب نثراً فكلما أحس مَلَلَ القارئ وسآمته؛ خرج من الجد الذي هو فيه إلى الدعابة والهزل، ليقشع تلك السآمة، ويلطف ذلك الجو الكئيب.

٦. الاستطرادات: يستطرد الجاحظ كثيراً ويذكر إشارات جميلة، كما يستطرد في مسائل كلامية ويحشد الأدلة التي تؤيد مذهبه الاعتزالي. كما يستطرد في ذكر صدق الظن وجودة الفراسة، وينتقل إلى المديح بالجمال وغيره؛ كما ينتقل إلى الفطنة وفهم الرطانات والكنايات والفهم والإفهام، ويتكلم عن الخطوط ومرافقها، ويستطرد في ذكر النيران وأنواعها وفضلها وما ورد في القرآن حولها، مبيناً علة ذلك بقوله: (قد ذكرنا جملة من القول في النار، وإن كان ذلك لا يدخل في باب القول في أصناف الحيوان، فقد يرجع إليها من وجوه كريمة نافعة الذكر، باعثة على الفكر، وقد يعرض من القول ما عسى أن يكون

أنفع لقارئ هذا الكتاب من باب القول في الفيل والزندبيل، والقرد والخنزير، وفي الدب والذئب، والضب والضبع، وفي السمع والعسبار)(١٠).

٧. لفت الأنظار إلى بديع خلق الله تعالى: يلفت الجاحد أنظار القُرَّاء إلى بديع صنع الله، ويحذر من السخرية من مخلوقاته سبحانه وتعالى؛ ويبين أن الله لم يخلق شيئاً عبثاً، وأن الحقير من المخلوقات والعظيم منها سواء في الدلالة على عظمة الخالق وحسن صنعه، كما يحث على التفكر والاتعاظ في كون الله المنظور، وما خلق فيه وأودع من أسرار مخلوقاته الدالة عليه؛ لأن إهمال ذلك يؤدي إلى الجحود والبعد عن الله تعالى؛ فيقول: (أوصيك أيُّها القارئ المتفهّم وأيهُا المستمعُ المنصت المصيخ ألاّ تحقِرَ شيئاً أبداً لصغر جثَّته، ولا تستصغر قدرَه لقلَّة ثمن. ثمّ اعلمْ أنَّ الجبلَ ليس بأدلّ على الله من الحصاة، ولا الفَلكَ المشتمل على عالَمنا هذا بأدلَّ عَلَى الله من بَدَن الإنسان، وأنَّ صغيرَ ذلك ودقيقَهُ كعظيمهِ وجليله، ولم تفترقِ الأمورُ في حقائقها وإنما افترقَ المفكّرون فيها، ومَن أهمَل النَّظر وأغفَلَ مواضع الفَرْق وفَصولَ الحدود،.... ثم يقول: فأمَّا خلْق البَعوضةِ والنَّملة والفَرَاشةِ والذَّرَّة والذِّبّان والجِعْلان واليعاسيب والجراد فإياك أن تتهاونَ بشأن هذا الجُنْد، وتستخف بالآلة التي في هذا الذَّرْء، فَربَّتَ أمة قد أجلاها عن بلادها النملُ ونقلَها عن مساقِطِ رؤوسها الذَّرُّ، وأُهلِكت بالفأر، وجُردت بالجَرَادِ، وعُذِّبت بالبعوض، وأفسَدَ عيشها الذِّبَّان، فهي جُندٌ إن أراد الله عزَّ وجلَّ أن يهلِك بها قوماً بَعْدَ طُغْيانِهم وتجبُّرهم وعتَوّهم ليعرفوا، أو ليُعرَفَ بهم أنَّ كثيرَ أمرِهم لا يقوم بالقليلِ من أمر الله عَزّ وجلّ، وفيها بَعْدُ مُعتبرٌ لمن اعتبر، وموعظةٌ لمن فكّر، وصلاحٌ لمن استبصر، وبلوَى ومِحْنة، وعذابٌ ونِقْمة، وحُجَّة صادقة، وآيةٌ واضحة، وسَبَبٌ إلى الصّبْرِ والفِكْرَةِ، وَهما جِمَاع الخيرِ في باب المعْرفة والاستبانة، وفي بابِ الأجْر وعِظَمِ المثوبة...)(١١).

وهكذا لا يفتأ يذكرنا بجميل صنع الله، وحكيم تدبيره في خلقه، بين الفينة والأخرى؛ ليربطنا بالله تعالى ويوثق صلتنا به جل وعلا.

(١٠) الحيوان، (٥/١٤٨-١٤٩).
(١١) المصدر السابق، (٣/٣٠٤).

المسألة الثانية: محتوى كتاب البيان والتبيين

يمكن تلخيص محتوى كتابه "البيان والتبيين" في الآتي(١٢):

١- البيان والبلاغة: فقد عرف البيان وفصل في أنواع الدلالات البيانية، وعقد أبواباً لمدح اللسان والبيان، ووازن بين لغة العامة والحضر والبدو مبيناً صحة لغة الأعراب في عصره، وأورد من نوادر شعرهم، وفصل في لُكنة النبط والروم. وعقد باباً للحن ومتي يستملح وممن؟، ومتى يستهجن وممن؟ وتكلم عن النوادر والقصص ووجوب أدائها كما هي. وساق نصوصاً من القرآن الكريم التي تنوه بشأن البلاغة والبيان. ويعقد باباً للحروف ومخارجها وأثر سعة الفم وضيقه في المخارج والحروف التي تدخلها اللثغة، واللثغة والشنيعة واللثغة الظريفة؛ ليعتذر لشيخ المعتزلة واصل بن عطاء! ويتحدث عن البلاغة عند الروم والهند والفرس والأعراب؛ ذاكراً رؤوس البلغاء، إلاَّ أنه لم يذكر الأقسام كما هو معروف في زمننا.

٢- الخطب والرسائل والوصايا: اهتم الجاحظ كثيراً بهذا الفن الذي يعتبره من أهم ركائز دعوتهم الاعتزالية في بيان مذهبهم ومقالاتهم، وذكر أنه ينبغي للخطيب الاقتباس من القرآن والشعر، وأن تشتمل خطبته على القصص والمثل، ويجب أن يرفع الخطيب صوته، وأن يتحرك الحركة المعبرة والهادفة حسب السياق، كما تكلم عن وجوب أخذ الخطيب للعصي والمخاصر، ويذكر أمثلة من الخطباء في صدارتهم سيد الخطباء النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-. كما بين أن من مظاهر البيان العربي الرسائل والوصايا، حيث ذكر في كتابه قدراً كبيراً منها لتكون مثالاً يقتفى، ومعلماً يحتذى.

٣- الشعر والرجز والمثل والسجع: ويذكر الجاحظ الشعر والرجز والمثل والسجع؛ كوسيلة من وسائل البيان، مبيناً أوزان الشعر التي لا بد منها، ذاكراً أن قصد الشعر مطلوب لتمييز الشاعر من غيره، وما ورد في القرآن من كلام موزون لا يعتبر شعراً إذ إنه ليس مقصوداً في الآية. موضحاً أن الشعر خير وسيلة لتخليد الانتاج الفني، وللشعراء رسوم خاصة، وقد كانت بعض أبيات الشعر سبباً من أسباب تسمية الشاعر. ومن ناحية

(١٢) ينظر: تقديم: عبد السلام محمد هارون، لكتاب البيان والتبيين، للجاحظ؛ عمرو بن بحر، أبو عثمان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي -القاهرة، ط: ٧، (١٩٩٨م)، (٧/١)، بتصرف.

السجع فقد ذكر سجع الجاهلية؛ الذي نهى عنه الأدباء لأن أهل الجاهلية كانوا يستخدمونه في الكهانة والتنجيم والرجم بالغيب، فلما زالت العلة زال سبب التحريم.

٤- الأعلام والقبائل والأمم والطوائف والبلدان: وقد كان لهذا الموضوع بالغ للعناية والتركيز في كتاب الجاحظ؛ فقد ذكر الإباضية والأزارقة والأحباش والأزد، والأساورة والأقباط والأنباط وأنف الناقة وأنمار وباهلة وبجيلة والبرابرة والبرامكة والبغداديون وتيم وبنو تميم والديلم والرافضة وربيعة وغيرهم كما ذكر من البلدان الكثير والكثير كالأبلة والأبطح وأصبهان وأفريقية والأنبار وبرقة وأجياد والبحرين وبيت المقدس، وبلاد الروم والشام، ومصر...

٥- القصاص والنساك: عقد الجاحظ باباً لذكر النساك والزهاد والعباد من أهل البيان، وتحدث عن الزهد واقتبس كلاماً من كلامهم، كمواعظ عيسى وداود عليهما السلام، ومواعظ الحسن البصري وغيرهم، كما عقد باباً آخر لذكر القصاص، وروى عنهم واقتبس منهم.

٦- الحمقى والموسوسين والأغبياء: أتحف الجاحظ كتابه بأخبار وطرائف بعض الحمقى والمغفلين والموسوسين والأغبياء والجفاة، وذكر بعض ما قد يتميزوا به من بيان ساخر، وتبيين عجيب، كما قد يريد بعضهم البيان فيأتي بفاحش الكلام، فيكون كلامه عُواراً! كل ذلك يورده الجاحظ؛ ليسري على النفس، ويذهب عن القارئ السآمة والملل.

٧- الاختيارات: الجاحظ عالم ناقد، وبحر متلاطم، لذا فهو يختار لكتابه من الشعر أجزله، ومن النثر أحسنه، ومن الكلام أثبته، كل ذلك يستعمله حيث يريده دعم كلامه وتأييد مرامه. فتراه يختار من المراثين والخمريات، والهجاء والمديح، وما قيل في الشيب، وتراه يختار ما حوى من الحكمة والزهد والمواعظ، أو يختار من القصص والنوادر، ومن الأدب والرسائل والوصايا. إلى غير ذلك من الاختيارات.

المطلب الثالث: أقسام التفسير

قسم ابن عباس -رضي الله عنهما- التفسير إلى أربعة أقسام: (وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلاَّ الله)(١٣).

قال الزركشي: (وهذا تقسيم صحيح: فأما الذي تعرفه العرب فهو الذي يرجع فيه إلى لسانهم وذلك شأن اللغة والإعراب.

وأما ما لا يعذر واحد بجهله وهو ما تتبادر الأفهام إلى معرفة معناه من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد وكل لفظ أفاد معنى واحداً جلياً لا سواه يعلم أنه مراد الله تعالى.

وأما ما لا يعلمه إلَّا الله تعالى فهو: ما يجرى مجرى الغيوب نحو: الآي المتضمنة قيام الساعة، ونزول الغيث، وما في الأرحام، وتفسير الروح، والحروف المقطعة، وكل متشابه في القرآن عند أهل الحق فلا مساغ للاجتهاد في تفسيره، ولا طريق إلى ذلك إلا بالتوقيف من أحد ثلاثة أوجه: إما نص من التنزيل، أو بيان من النبي -صلى الله عليه وسلم- أو إجماع الأمة على تأويله، فإذا لم يرد فيه توقيف من هذه الجهات علمنا أنه مما استأثر الله تعالى بعلمه.

وأما ما يرجع إلى اجتهاد العلماء وهو: الذي يغلب عليه إطلاق التأويل، وهو صرف اللفظ إلى ما يؤول إليه؛ فالمفسر ناقل، والمؤول مستنبط، وذلك استنباط الأحكام وبيان المجمل وتخصيص العموم، وكل لفظ احتمل معنيين فصاعداً؛ فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه، وعلى العلماء اعتماد الشواهد والدلائل، وليس لهم أن يعتمدوا مجرد رأيهم فيه)(١٤).

ويرى عبدالله الجديع تقسيم المعاصرين التفسير حسب موضوعه إلى: التفسير الموضوعي، والتّفسير العلميّ، والتفسير العددي.

---

(١٣) الحلبي؛ نور الدين محمد عتر، علوم القرآن الكريم، مطبعة الصباح -دمشق، ط: ١، (١٩٩٣م)، ص: ٧٣.

(١٤) الزركشي؛ بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ط: ١، (١٩٥٧م)، (٢/ ١٦٤)، وما بعدها بتصرف.

أما التفسير الموضوعي فهو: التناول لجانب واحد من جوانب القرآن الكريم بالبحث والدراسة والتقصي، كدراسة: الإيمان في القرآن، الأخلاق في القرآن، الليل والنهار في القرآن، وهكذا. (وهذا أسلوب عصريّ، لم يكن شائعاً في تصانيف السّابقين على سبيل الإفراد بالتّأليف، إنّما كانوا يراعون تتبّع المصطلح القرآني من حيث الجملة)(١٥).

وأما التّفسير **العلميّ**: فالمراد به تفسير الآيات الّتي تتحدّث عن الكون وخلق الإنسان ونحو ذلك، بما توصّل إليه العلم الحديث من اكتشاف واطّلاع على حقائق لم يهتد إليها عموم النّاس من قبل(١٦).

وأما التّفسير **العدديّ** للقرآن فالمقصود به: استخراج دلائل ومعان، بناء على حساب عدد الحروف أو الكلمات، ومنه البحث عن سرّ عدد السّبعة أو السّبعين أو الأربعين، وشبه ذلك(١٧).

(١٥) الجديع؛ عبد الله بن يوسف بن عيسى بن يعقوب، المقدمات الأساسية في علوم القرآن، مركز البحوث الإسلامية ليدز –بريطانيا، ط: ١، (٢٠٠١م)، ص: ٣٩٠.
(١٦) المقدمات الأساسية في علوم القرآن، مصدر سابق، ص: ٣٩١.
(١٧) المقدمات الأساسية في علوم القرآن، مصدر سابق، ص: ٣٩١.

المبحث الثاني: أقوال الجاحظ في التفسير

توطئة:

ولعل حادينا في تناول آراء الجاحظ في التفسير هو أن المؤلفين في طبقات المفسرينقد عدوه من رجال التفسير وأن له فيه مشاركات مهمة(١٨).

اجتهد الجاحظ برأيه في تفسير بعض آيات القرآن الكريم وفي فهمها؛ منكراً لبعض تأويلات القصاص والوعاظ وغيرهم من أصحاب الفرق: كالشيعة والقدرية والخوارج والزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين؛ كما أنه يرد على المعتزلة بقوله: والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير.

وله تعليلات قمة في الروعة كالذي ذكرها في إنكاره رؤية الجن وسماع أصواتهم، كما أنه ينكر كل ما يعارض العقل من أساطير وخرافات حول الجن والإنسان والحيوان والظواهر الطبيعية، كما أن له تفسيرات عجيبة وطريفة لم يسبق إليها أحد قبله؛ إلا أن العلماء يكتفون بذكر آراء الجاحظ الكلامية، ويغفلون آراءه التفسيرية، ومع أن كتاب الحيوان والبيات والتبيين ليسا خالصة للتفسير باعترافه هو؛ حيث يقول في كتاب الحيوان: وإن كان هذا الكتابُ لم يُقصد به إلى هذا الباب حيثُ ابتدئ، وإن نحنُ استقصيناه –أي الرد على المطاعن في القرآن الكريم- كنَّا قد خرجْنا من حدِّ القول في الحيوان، ولكنا نقول بجملةٍ كافية والله تعالى المعين على ذلك(١٩).

فهنا وضح الجاحظ أن تأليفه لكتاب الحيوان هو استقصاء الحيوانات، وليس للرد على المطاعن في القرآن، إلا أنه تعرض لبعض تلك المطاعن ورد عليها، وتعرض لبعض الآيات وأدلى دلوه وبين رأيه فيها، ولذا سنحاول في هذا المبحث التطرق لبعض تلك الآراء وفرزها من خلال تسعة مطالب:

لا شك أن الجاحظ قد تناول الكثير من الآيات في كتابيه، وجمع بينها في مواضع، لكن ضرورة طرق المواضيع تلجؤه إلى تناول الآيات كغيره من القدامى والمؤلفين.

---

(١٨) انظر: ترجمته في طبقات المفسرين، لمحمد بن علي بن أحمد، شمس الدين الداوودي، دار الكتب العلمية – بيروت، (د. ت)، (٢/ ١٦).
(١٩) الحيوان، (٦/٢٦٤)، وما بعدها.

وفي هذا المبحث الذي يمثل صلب هذا البحث سنسلط الضوء على تلك الآراء التي فسر بها الجاحظ آيات القرآن الكريم من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: ما ذكره في باب التفسير الموضوعي

ذكر الجاحظ نوعين من الآيات ذات الموضوع الواحد، النوع الأول: الآيات المتعلقة بالمعنى الواحد، والثاني: الآيات المتشابهة في اللفظ وإن كان المعنى مختلف، نذكر منها الآتي:

المسألة الأولى: الآيات ذات المعنى الواحد

١- هوان شأن القرد والخنزير:

وتحت هذا العنوان يتطرق الجاحظ لهوان هوان شأن القرد والخنزير مبيناً أن الله تعالى مسخ أعداءه قردة وخنازير، ولم يمسخهم حميراً ولا كلاباً ولا عناكب أو جنادب؛ ليس لحقارتهما ولا لسوء خلقتهما، فهناك من الحيوانان من هو أحقر وأقل شأناً، وهناك منها ما هو أبلد وأسوأ حالاً ولكن لأنه جعل لهما في صُدور العامّة والخاصّة من القُبْح والتَّشويه ونذالةِ النَّفس ما لم يجعلْهُ لشيءٍ غيرهما من الحيوان! فيقول: قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا﴾ (البقرة: ٢٦)، فقلَّلها كما ترَى وَحقّرها وضرب بها المثل؛ وهو مع ذلك جلّ وعلا لم يمسخ أحداً من حَشْو أعدائه وعظمائِهم بعوضة.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ (الحج: ٧٣)، إنَّمَا قرَّع الطالب في هذا الموضعِ بإنكاره وضعفه؛ إذ عجز ضعفُه عن ضَعْفِ مطلوبٍ لا شيءَ أضعَفُ منه؛ وهو الذباب ثمّ مع ذلك لم نجدْه جلَّ وعلا ذَكَرَ أنَّهُ مسخ أحداً ذُباباً.

وقال: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤١)، فَدَلَّ بوهْن بيتِه على وهْن خَلْقه، فكان هذا القولُ دليلاً على التّصغيرِ والتّقليل، وإنما لم يقل: إنِّي مسخْتُ أحداً من أعدائي عنكبوتاً.

وقال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ (الأعراف: ١٧٦)، فكان في ذلك دليلٌ على ذمِّ طباعه، والإخْبار عن تسرُّعِهِ وبَذائِه، وعن جهله في تدبيره وترْكِهِ وأخْذه، ولم يقل إني مسخْتُ أحداً من أعدائِي كلباً.

وذكر الذّرَّة فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (الزلزلة: ٧ – ٨)، فكان ذلك دليلاً على أنَّه من الغايات في الصِّغَر والقِلَّة، وفي خِفَّة الوزْن وقلة الرجحان، ولم يذكُرْ أنّه مسَخَ أحداً مِن أعدائه ذرّة.

وذكر الحِمار فقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (الجمعة: ٥)، فجعله مثلاً في الجهل والغفلة، وفي قِلَّةِ المعرفةِ، وغِلَظِ الطَّبيعة، ولم يقلْ إنِّي مسخْتُ أحداً من أعدائي حماراً، وكذلك جميع ما خَلَق وذَكرَ من أصناف الحيوان بالذَّمِّ والحمد.

فأمَّا غير ذلك ممّا ذكر من أصناف الحيوان فإنّه لم يذكرْهُ بذمٍ ولا نقص؛ بل قد ذكر أكثَرهنّ بالأمور المحمودة؛ حتَّى صار إلى ذكر القرد فقال: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ (المائدة: ٦٠)، فلمْ يكنْ لهما في قلوبِ النَّاس حال، ولو لم يكن جعل لهما في صُدور العامّة والخاصّة من القُبْح والتَّشويه ونذالةِ النَّفس ما لم يجعلْهُ لشيءٍ غيرهما من الحيوان؛ لما خصَّهما الله تعالى بذلك.

وقد علمنْا أنَّ العقربَ أشدُّ عداوةً وأذًى وأفسَدُ، وأنَّ الأفعى والثُّعْبانَ وعامَّةَ الأحناش أبغَضُ إليهم وأقتَلُ لهم، وأنَّ الأسَدَ أشَدُّ صَوْلةً، وأنّهم عن دفعهم له أعجز وبغضَهم له على حسب قوّته عليهم وعجزِهم عنه، وعلى حَسبِ سوءِ أثره فيهم، ولم نَرَهُ تعالى مسَخَ أحداً من أعدائه على صورة شيءٍ من هذه الأصناف، ولو كان الاستنذالَ والاستثقالَ والاستسقاطَ أراد لكان المسخ على صورة بناتِ وَرْدانَ أولى وأحقّ، ولو كان التَّحقيرَ والتَّصْغيرَ أرَادَ لكانت الصُّؤابة والجِرْجِسَة أولى بذلك، ولو كان إلى الاستصغار ذهَبَ لكان الذّرُّ والقمْل والذُّبابُ أولى بذلك، والدَّليل على قولنا قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ (الصافات: ٦٤-٦٥) ولَيْسَ أن النَّاسَ رأوْا شيطاناً قطُّ على صورة، ولكنْ لما كان الله تعالى قد جعل في طِباع جميع الأمم استقباحَ جميعِ صُور الشَّياطين واستسماجَه وكراهتَهُ، وأجرى على ألسنة جميعهم ضرْبَ

المثل في ذلك؛ رجع بالإيحاش والتّنفير وبالإخافة والتقريع إلى ما قد جعله الله في طباع الأوّلين والآخِرين، وعندَ جميعِ الأمم على خلاف طبائع جميع الأمم، وهذا التأويل أشبهُ مِن قولِ مَنْ زعَمَ مِن المفسّرين أنّ رُؤوسَ الشّياطين نبات نبت باليمن[٢٠].

وقال الله عزّ وجلّ لنبيّه: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٤٥)، فذكر أنه رِجْسٌ، وذكر الخنزير وهو أحد المسوخ، ولم يذكر في هذه الآية التي أحصى فيها أصنافَ الحرام وأباح ما وراء ذلك القرْدَ. وصار بعضهم إلى تحريمه من جهة الحديث وهو عند كثيرٍ منهم يحتمل المعارَضة[٢١].

ثم ينتقل الجاحظ إلى الخنزير معدداً بعض مساوئه؛ بقوله: فلولا أنَّ في الخنزير معنًى متَقَدّماً سوى المسخ، وسِوى ما فيهِ من قبح المنظر، وسَماجة التمثيل، وقبح الصوت، وأكل العَذِرة؛ مع الخلاف الشديد، واللِّواط المفْرط، والأخلاقِ السمجة، ما ليس في القرد الذي هو شريكه في المسخ؛ لَمَا ذَكَرَه دونه[٢٢].

ثم يبين أن سبب ذكر تحريم الخنزير في القرآن دون ذكر القرد هي: عدم اعتياد العرب على أكل القرد وعدم استساغتهم لذلك، بعكس الخنزير، ولأن لحم القرد مقزز فهو ينهى عن نفسه كلحم الكلب، فلم يكن هناك داعٍ هناك لذكره، فيقول: (وقد زعم نَاسٌ أنَّ العربَ لم تَكنْ تأكلُ القُرودَ، وكان من تنصَّرَ مِن كبار القبائل وملوكِها يأكلُ الخِنزير، فأظهر لذلك تحريمهُ، إذ كان هناكَ عالَمٌ من الناس وكثير من الأشراف والوضعاء والملوكِ والسُّوقة يأكلونُه أشدَّ الأكل، ويرغَبون في لحمه أشدّ الرغبة.

(٢٠) ذكر هذا التأويل القرطبي غير منسوب إلى قائله فقال: إنما شبه ذلك بنبت قبيح في اليمن يقال له الأستن والشيطان. قال النحاس: وليس ذلك معروفاً عند العرب. وقال الزمخشري: هو شجر خشن منتن مرٌّ منكر الصورة؛ يسمى ثمره رؤوس الشياطين. وقال الزجاج والفراء: الشياطين حيات لها رؤوس وأعراف، وهي من أقبح الحيات وأخبثها وأخفها جسماً، ينظر: القرطبي؛ محمد بن أحمد بن أبي بكر؛ أبو عبد الله، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط: ٢، (١٩٦٤م)، (١٥/ ٨٧).
(٢١) الحيوان، (٤/٣٦-٤٠).
(٢٢) المصدر السابق، (٤/٤٠-٤١).

قالوا: ولأنَّ لحم القرد يَنْهَى عن نفسِهِ، ويكفي الطبائعَ في الزّجرِ عنهُ غَثَثُه، ولحم الخنزير ممّا يُسْتَطابُ ويتواصَف، وسَبيلُ لحم القردِ كسَبيلِ لحمِ الكلب، بل هو شرٌّ منهُ وأخبَث)[٢٣].

وكلّ ذلك بعضُ الأسباب التي مُسخ لها الإنسان خنزيراً، وإنَّ القرد لَسَمِجُ الوجْه، قبيحٌ كلِّ شيء، وكفاك به أنَّه للمثل المضروب)[٢٤].

٢- ذكر الصُّمِّ في القرآن الكريم:

قال الله تعالى لناسٍ يسمعون: ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ (البقرة: ١٨)، ذلك على المثل، وقال: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٧١)، وذلك كلّه على ما فَسّرنا، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمًّا وَعُمۡيَانًا ﴾ (الفرقان: ٧٣)، وقال أيضاً: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ (الأنبياء: ٤٥).

٣- ما جاء في ذكر خصال الحرم المكي:

تحت هذا العنوان يذكر الجاحظ أن الله تعالى جعل بيته مثابة للناس وأمناً، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمۡنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ (البقرة: ١٢٥)، وقال عزَّ وجلَّ حكايةً عن إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيۡرِ ذِى زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِىٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ (إبراهيم: ٣٧) ثم ذكر خصالاً كثيرة وعظيمة للحرم المكي؛ -تحقيقاً لهذا الأمن المذكور-؛ فمنها: أنّ الذِّئبَ يصيد الظَّبيَ ويُريغه ويعارضه فإذا دخَلَ الحرم كفَّ عنه[٢٥].

(٢٣) المصدر السابق، (٤١/٤).
(٢٤) المصدر السابق، (٥٠/٤).
(٢٥) الحيوان، (١٣٩/٣-١٤١).

فضيلة البيان والإفصاح وذم التكلف والتشدق والتفيهق(٢٦):

ذكر الجاحظ أن الله تعالى مدح القرآن الكريم بالبيان والإفصاح، وبحسن التفصيل والإيضاح، وبجودة الافهام وحكمة الإبلاغ، وسماه فرقاناً؛ فقال: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (النحل: ١٠٣)، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾(طه: ١١٣)، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٨٩)، وقال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾(الإسراء: ١٢). كما ذكر الله تعالى لنبيه حال قريش في بلاغة المنطق، ورجاحة الأحلام، وصحة العقول، وذكر العرب وما فيها من الدهاء والنكراء والمكر، ومن بلاغة الألسنة واللدد عند الخصومة؛ فقال: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ (الأحزاب: ١٩)، وقال: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ (مريم: ٩٧)، وقال: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (البقرة: ٢٠٤)، وقال: ﴿أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (الزخرف: ٥٨)، ثم ذكر خلابة ألسنتهم واستمالتهم الاسماع بحسن منطقهم؛ فقال: ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ (المنافقون: ٤)، ثم قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (البقرة: ٢٠٤)، مع قوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ (البقرة: ٢٠٥)، وقيل لبزرجمهر بن البختكان الفارسي: أي شيء أستر للعي؟ قال: عقل يُجمِّله. قالوا: فإن لم يكن له عقل؟ قال: فمال يستره. قالوا: فإن لم يكن له مال؟ قال: فإخوان يُعَبِّرون عنه. قالوا: فإن لم يكن له إخوان يعبرون عنه؟ قال: فيكونعيِيَّاً صامتاً. قالوا: فإن لم يكن ذا صمت؟ قال: فموت وحي خير له من أن يكون في دار الحياة. وسأل اللهَ موسى بنُ عمران –عليه السلام- حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته، والإبانة عن حجته، والإفصاح عن أدلته؛ فقال حين ذكر العقدة التي كانت في لسانه، والحبسة التي كانت في بيانه: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ (طه: ٢٧). وأنبأنا الله تبارك وتعالى عن تعلق فرعون بكل سبب، واستراحته إلى كل شغب، ونبهنا بذلك على مذهب كل جاحد معاند، وعلى كل مختال مكايد؛ حين خبرنا بقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ

(٢٦) البيان والتبيين، (٧/١) وما بعدها، بتصرف.

مَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ (الزخرف: ٥٢)، وقال موسى -عليه السلام-: ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ﴾ (القصص: ٣٤)، وقال: ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى ﴾ (الشعراء: ١٣)، رغبة منه في غاية الإفصاح بالحجة، والمبالغة في وضوح الدلالة؛ لتكون الأعناق اليه أسرع، وإن كان قد يأتى من وراء الحاجة، ويبلغ أفهامهم على بعض المشقة. ولله عز وجل أن يمتحن عباده بما يشاء من التخفيف والتثقيل، ويبلو أخبارهم كيف أحب من المكروه والمحبوب، ولكل زمان ضرب من المصلحة، ونوع من المحنة، وشكل من العبادة. ومن الدليل على أن الله عز وجل حل تلك العقدة، وأطلق ذلك التعقيد والحبسة، قوله: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝٢٨ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾ (طه: ٢٥-٣٢) إلى قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ (طه: ٣٦)، فلم تقع الاستجابة على شيء من دعائه دون شيء لعموم الخبر. وذكر الله تعالى جميل بلائه في تعليم البيان، وعظيم نعمته في تقويم اللسان؛ فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ (الرحمن: ١-٤)، وقال: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٨)، وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (إبراهيم: ٤)، لأن مدار الأمر على البيان والتبيين، وعلى الإفهام والتفهيم، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد، والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل، إلاَّ أن المفهم أفضل من المتفهم، وكذلك المعلم والمتعلم. هكذا ظاهر هذه القضية وجمهور هذه الحكومة إلاَّ في الخاص الذي لا يذكر، والقليل الذي لا يشهر. وضرب الله مثلا لعَيّ اللسان ورداءة البيان حين شبه أهله بالنساء والولدان فقال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ (الزخرف: ١٨).

المسألة الثانية: الآيات المتشابهة في اللفظ:

١- تأويل الطيبات:

قالَ تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ (البقرة: ٥٧)، وعند هذه الآية ذكر الجاحظ: أن كلمة: ﴿طَيِّبَٰتِ﴾ تحتمل وجوهاً كثيرة منها[٢٧]: العذوبة: يقولون: هذا ماءٌ طيِّب يريدون العُذوبة. والوسط فوق الدون: فإذا قالوا للبُرّ والشَّعيرِ والأرز طيِّب فإنما يريدون أنَّه وَسَطٌ وأنّه فوقَ الدُّون. وسليم النتن: يقولون: فمٌ طيِّب الرِّيح. والحلال: يقولون: حلالٌ طيِّب، وهذا لا يحل لك، ولا يَطيب لك، وقد طاب لك؛ أي: حل لك، كقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ (النساء: ٣). والطهارة: قال طُوَيْسٌ المغنِّي لبعضِ ولد عثمانَ بن عفّان: لقدْ شَهِدْتُ زفاف أمِّك المباركَةِ إلى أبيك الطيِّب، يريد الطَّهارَة، ولو قال: شهدت زفاف أمِّك الطيِّبة إلى أبيك المبارك؛ لم يحسُنْ ذلك؛ لأنَّ قولك طيِّب إنَّمَا يدلّ على قدر ما اتَّصلَ به من الكلام. والظرف والملح: فإذا قالوا: فلان طيِّب الخُلُق فإنما يريدون الظَّرْفَ والمِلْح. وما ليس بقوي ولا ضعيف: قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ (يونس: ٢٢)، يريد ريحاً ليستْ بالضعيفة ولا القويّة. والرضا: يقال: لا يحلُّ مال امرئٍ مسلمٍ إلاَّ عن طيبِ نفْسٍ منه، وقال الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ (النساء: ٤). وطيبة الهواء خصبة التربة: قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾ (سبأ: ١٥)، وذلك إذْ كانت طيّبة الهواءِ. وفي قول الله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ (النور: ٢٦)، دليلٌ على أنّ التأويلَ في امرأةِ نوحٍ وامْرأة لوط عليهما السلام على غير ما ذهب إليه كثيرٌ من أصحاب التَّفسير: وذلك أنهم حينَ سمِعوا قولَه عزّ وجلَّ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ (التحريم: ١٠) فدلَّ ذلك على أنَّه لم يَعْنِ الخيانَةَ في الفرْج.

(٢٧) الحيوان، (٥٧/٤)، وما بعدها، بتصرف.

وقال الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ (النور: ٦١). وقال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ (النحل: ١١٤). وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ (النحل: ٩٧). وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف: ٣٢). وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (إبراهيم: ٢٤). وقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (البقرة: ٥٧)، فقوله "طيِّب": يقعُ في مواضعَ كثيرةٍ وقدْ فصَّلنا بعض ذلك في هذا الباب[٢٨].

٢- ما جاء في ذكر الطير في القرآن:

و يبدو للباحث أن حديث الجاحظ عن الطير يمكن أن يكون من أقوى الأدلة على تناول الجاحظ للتفسير الموضوعي بالإضافة إلى موضوعات الشياطين والجن والنار؛ إذ جمع الآيات المتعلقة بالطير فقال: قال الله جلّ ثناؤه: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٤٩)، وقال الله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ (المائدة: ١١٠)، وقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ١٣١)، وقال الله: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾ (يوسف: ٤١)، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ (الفيل: ١–٤)، وقال الله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ (النمل: ١٦)، ولم يذكر منطق البهائم والسباع والهمج والحشرات. وقال الله: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٦٣)؛ لأنك حيثما تجد المنطقَ تجد

(٢٨) الحيوان، (١/ ٥٧) وما بعدها، بتصرف.

الرُّوح والعَقل والاستطاعة. وقالوا: الإنسان هو الحيُّ الناطقُ. وقال الله: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ (طه: ٨٨–٨٩)، ثم قال: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ (النمل: ١٧)، ولم يذكر شيئاً من جميع الخلق، وقد كان الله سخّر له جميعَ ذلك. ثم قال: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ (النمل: ٢٠)، ولم يتفقد شيئاً ممَّا سخّر له، ولا دلَّ سليمانَ على مَلِكة سبأ إلاّ طائرٌ. وقال الله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ (الحج: ٣١)، وقال الله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٤)، فلما ذكر داود قال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ (الأنبياء: ٧٩)، وقال الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (فصلت: ٢٠-٢١). وقالوا: مَنطِق الطير على التشبيه بمنطق الناس، ثم قالوا بعدُ: الصَّامت والناطق، ثم قالوا بعد للدار: تنطق. وقال الله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (النمل: ٤٦–٤٧). وقال اللهُ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (النمل: ٨٢). وكان عبدُ الله بن عبّاسٍ يقول: ليس يعني بقوله: تُكلِّمهم من الكلام؛ وإنما هو من الكَلْم والجِراح، وجمع الكَلْم كُلوم، ولم يكن يجعلُه من المنطق؛ بل يجعله من الخُطوط والوسم، كالكتاب والعلامة اللذين يقومان مقام الكلام والمنطق. وقال الآخرون: لا نَدعُ ظاهرَ اللفظ والعادةَ الدالّة في ظاهر الكلام إلى المجازات، قالوا: فقد ذكر الله الدابّة بالمنطق، كما ذكروا في الحديث كلام الذئب لأهبان بن أوس، وقولُ الهدهد مسطورٌ في الكتاب بأطول الأقاصيص وكذلك شأن الغراب. وقال الله: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وجعل الله مقالة النملة قرآناً. وقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨)، وقال في مكان آخر: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾(الواقعة: ٢١)،

وقال: ﴿ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾ (ص: ١٩)، وذكر الملائكة فقال: ﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ (فاطر: ١). وأنشدوا النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- قول أميّة بن أبي الصَّلت:

رَجُلٌ وَثَوْرٌ تحتَ رِجْلِ يَمِينِهِ والنَّسْرُ لِلأُخْرَى وَلَيْثٌ مَرْصَدُ

فقال: (صدق)[٢٩].

وقال الله: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴾ (نوح: ٢٣)، لأن ذلك الصنم كان علَى صورة النَّسر. وقال الله: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

٣- ما جاء في النِّيران وأقسامها:

قال الجاحظ: ونحنُ ذاكرون جُمَلاً من القَول في النِّيرانِ وأجناسها ومواضِعِها، وأيَّ شيء منها يضافُ إلى العجَم، وأيِّ شيء منها يضاف إلى العرَب، ونُخبِرُ عن نيران الدِّيانات وغير الدِّيانات، وعمَّن عظَّمها، وعمَّن استهانَ بها، وعمَّنْ أفرَطَ في تعظيمها حتَّى عَبَدَها، ونُخبِرُ عن المواضعِ التي عُظِّمَ فيها مِنْ شأن النَّار[٣٠].

وقد استطرد الجاحظ في ذكر كثير من أنواع النيران التي كانت الجاهلية تمارسها في وقعها العملي والحياتي، والذي يهمنا من تلك النيران ما ذكها القرآن الكريم فقط وهي[٣١]:

نار القربان: فمن مواضعها التي عُظِّمَتْ بها أنَّ الله عزَّ وجلّ جعلها لبني إسرائيلَ في موضعِ امتحان إخلاصهم، وَتَعَرُّفِ صدق نياتهم، فكانوا يتقرَّبون بالقرْبان؛ فَمَنْ كانَ منهم مُخلِصاً نزلتْ نارٌ من قِبَلِ السّماء حَتَّى تُحيطَ به فتأكُلَهُ، فإذا فَعَلَتْ ذلك كان صاحبُ القُرْبَان مُخْلِصاً في تَقَرُّبِه، ومَتَى لَمْ يَرَوْهَا وَبَقِيَ القُرْبَانُ على حَاله قَضَوْا بأنَّه كانَ مدخولَ القلْب، فاسِدَ النِّيةِ، ولذلك قال الله تعالى في كتابه: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا

(٢٩) راواه أحمد، حديث رقم: (٢٣١٤)، (١٥٩/٤).
(٣٠) المصدر السابق، (٤٦١/٤).
(٣١) الحيوان، (٤٦١/٤)، وما بعدها بتصرف.

نُّؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٨٣)، والدَّليل على أنّ ذلك قَدْ كَانَ معلوماً قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ﴾، ثمَّ إنّ الله سَتَرَ على عبادِه وجعَلَ بيانَ ذلك في الآخرة، وكان ذلك التّدبيرَ مصلحةَ ذلك الزّمانِ، ووفق طبائعهم وعللهم، وقد كانَ القوم من المعاندةِ والغَباوة على مقدارٍ لم يكنْ لينجع فيهم، وَيَكمُلَ لمصلحتهم؛ إلا ما كان في هذا الوزْن، فهذا بَابٌ من عِظَم شأنِ النَّار في صُدور النَّاس.

– **نار موسى –عليه السلام-**: وممَّا زاد في تعظيم شأنِ النَّار في صدور النَّاس قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ (طه: ٩–١٢)، وقال عزّ وجلّ: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (النمل: ٧–٨)، وكان ذلك مما زاد في قَدْرِ النّار في صدور النَّاس.

- **نار إبراهيم –عليه السلام–**: ومن ذلك نار إبراهيم –صلى الله عليه وسلم– وقال الله عزّ وجلّ: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ٦٠ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ﴾ (الأنبياء: ٦٠ – ٦١)، ثم قالَ: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ٦٨)، فلما قال الله عزّ وجلّ: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ (الأنبياء: ٦٩)، كانَ ذلك مما زاد في نباهة النارو قدرها في صدور الناس.

– **نار التخويف والردع**: قال الله تعالى لِلثَّقَلَيْنِ: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ٣٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ٣٥–٣٦)، فجعل الشُّواظ والنُّحَاسَ؛ وهما النّارُ وَالدُّخانُ من الآية، ولذلك قال على نَسَق الكلام: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾،

ولم يَعْنِ أن التّعْذيبَ بالنّار نعمةٌ يومَ القيامة، ولكِنه أرادَ التّحذيرَ بالخوفِ والوَعِيدِ بها؛ غيرَ إدخالِ النَّاس فيها وإحراقهم بها.

- **النار المتصاعد من الشجر**: والعَفار والمَرْخ من بين جميع العِيدان التي تُقْدَحُ أَكثَرُها في ذلك وأسرعُها. قال: ومن أمثالهم: في كُلِّ الشَّجَرِ نارٌ واستمجَدَ المَرْخُ والعَفار. وهي المرادة بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ (يس: ٨٠)، فالنَّار مِنْ أكْبَر الماعون وأعظَمِ المنافع المرافق، ولو لم يكن فيها إلاّ أنَّ الله عزّ وجلّ قد جَعَلَهَا الزاجرةَ عن المعاصي لكان ذلك ممّا يزيدُ في قَدْرِها وفي نَباهة ذِكْرها. وقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ (الواقعة: ٧١–٧٣)، فقف عند قوله: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾، فإنْ كنت بهذا القول مؤمناً فتذكَّرْ ما فيها من النعمة أولاً ثم آخراً، ثم توهَّمْ مقادير النعم وتصاريفها. وقد علمنا أَنَّ الله عذَّب الأممَ بالغَرقَ، والرِّياحِ، وبالحاصِب، والرُّجُمِ، وبالصّواعق، وبالخسْف، والمسخ، وبالجُوع، وبالنقص من الثمرات، ولم يبعث عليهم نَاراً كما بعث عليهم ماءً وَريحاً وحجارة، وإنما جعلها من عقاب الآخرة، وعذاب العُقبَى، ونهى أن يُحرق بها شيء من الهوامّ، وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لا تُعَذِّبُوا بِعَذَاب الله)[٣٢]، فَقَدْ عَظَّمَهَا كما ترى. فتفهَّمْ رَحِمَك الله فقد أرادَ اللهُ إفهَامك.

وكل شيء أضافه الله إلى نفسه فقد عظَّم شأنه، وشدَّد أمره، وقد فَعَل ذلك بالنار، فقالوا بأجمعهم: دَعْهُ في نار الله وسقَرِه، وفي غضب الله ولعنته، وسَخَط الله وغضبه هما: ناره، أو الوعيدُ بناره، كما يقال: بيتُ الله، وزُوّار الله، وسماءُ الله، وعرشُ الله.

(٣٢) رواه البخاري، محمد بن إسماعيل؛ أبو عبد الله الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط: ١، (١٤٢٢هـ)، حديث رقم: (٣٠١٧)، (٦١/٤).

المطلب الثاني: آراء الجاحظ التفسيرية:

وفي هذا المطلب سنتطرق لبعض من تلك الآراء في المسائل الآتية:

المسألة الأولى: قواعد التفسير عند الجاحظ

القاعدة الأولى: لا يخصص العموم إلا القرآن والسنة الصحيحة:

ذكر الجاحظ هذه القاعدة عند تعرضه لتفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ١١٩)، وذِكْرِ أقوال المفسرين فيها، ورَدِّه على مجاهد وسعيد ابن جبير انتقادهما وتخطيئهما قول عكرمة في أن المراد بتغيير خلق الله: هو خصاء البهائم؛ فقال: (فمن العجب أن الذي قال عكرمة هو الصواب، ولو كان هو الخطأ لما جاز لأحد أن يقول له: كذبت، والناسُ لا يضعون هذه الكلمةَ في موضِع خطأ الرأي ممَّن يُظَنُّ به الاجتهاد وكان ممَّن له أن يقول، ولو أنَّ إنساناً سمِع قولَ الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾، قال: إنَّما يعني الخِصاء لم يقبل ذلك منه لأنَّ اللفظ ليست فيه دلالةٌ على شيءٍ دونَ شيء، وإذا كان اللفظُ عاماً لم يكن لأحدٍ أن يقصِد به إلى شيءٍ بعينه؛ إلاَّ أن يكون النبي -صلى الله عليه وسلم- قال ذلك مع تلاوةِ الآية، أو يكونَ جبريلُ عليهِ السلام قال ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم-)[٣٣].

القاعدة الثانية: يبقى اللفظ على عمومه ما لم يرد ما يخصصه:

نستنتج هذه القاعدة من ردِّ الجاحظ على من قال: إن المحرم من الخنزير هو اللحم فقط بدليل الآية: ﮋ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕﮊ (المائدة: ٣)، فقد ذكرت الآية لحم الخنزير دون سائر أجزائه، ولم يذكره كما ذكر الميتة بأسرها وكذلك الدم لأن القول وقع على جملتهما فاشتمل على جميع خصالهما بلفظ واحد وهو العموم وليس ذلك في الخنزير لأنه ذكر اللحم من بين جميع أجزائه؟ وعند ذكره لقوله تعالى: ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ (النجم: ٥١)، وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ (الحاقة: ٨)، قال: (وأنا أعجب من مسلم يصدق بالقرآن

(٣٣) الحيوان، (١/ ١٧٩-١٨٠).

ويزعم أن في قبائل العرب من بقايا ثمود، وكان أبو عبيدة يتأول قوله: ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾، أن ذلك إنما وقع على الأكثر، وعلى الجمهور الأكبر، وهذا التأويل أخرجه من أبي عبيدة سوء الرأي في القوم، وليس له أن يجيء إلى خبر عام مرسل غير مقيد، وخبر مطلق غير مستثنى منه؛ فيجعله خاصاً كالمستثنى منه، وأي شيء بقي لطاعن أو متأول بعد قوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾، فكيف يقول ذلك إذا كنا نحن قد نرى منهم في كل حي باقية - معاذ الله من ذلك)(٣٤).

ولعل الصحيح أن الله تعالى استأصل الكافرين من ثمود وهم الذين لم تبق لهم باقية، أما الصالحون منهم فقد يكون لهم نسل وقد يكون منهم في كل حي باقية.

كما نفهم هذه القاعدة من كلامه عند تعرضه لتفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام: ٣٨)، حيث قال: (فالكلمة في الحشر: مطلقة عامة، ومرسلة غير مستثنى منها، فأوجب في عموم الخبر على الطير الحشر، والطير أكثر الخلق)(٣٥).

القاعدة الثالثة: العبرة بالأشهر والأنبه والغالب من كلام العرب:

يبين الجاحظ أن القرآن الكريم يعتبر الأشهر والأنبه والغالب الشائع من كلام العرب؛ وهذه القاعدة موافقة لقول الأصوليين: **العبرة بالغالب الشائع لا بالقليل النادر**، وقد ذكر الجاحظ هذه القاعدة عند تعرضه لتفسير قول الله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ (النساء: ١١)، حيث قال: دخلت الأمُّ في اسم الأبوَّة كأنهُمْ يَجمعُون على أنْبَهِ الاسميْنِ، كقولهم: سيرَة العُمَرَين وأبو بكْرٍ فوقَ عمر(٣٦)، كما يقولون: الأحمران: الذهب والزعفران، والأبيضان: الماء واللَّبن، والأسودان: الماء والتمر.

---

(٣٤) البيان والتبيين، (١/١٨٧-١٨٨).
(٣٥) الحيوان، (٧/٤٥).
(٣٦) المصدر السابق، (٣/٣٠٥).

ويقولون: أهلَكَ النِّساء الأَحمران: الذَّهب والزّعفران، وأهلَكَ النَّاسَ الأحامِر: الذهب والزعفران واللَّحم والخمر. ويقولون: الجديدان: اللَّيل والنهار، وهما الملوان[٣٧].

وتطبيقاً لهذه القاعدة فقد ردَّ الجاحظ قول من قال: إن قابيل قتل أخاه هابيل ليلاً؛ بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ﴾، فقال: (وأمّا قوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ (المائدة: ٣١)، فلم يكنْ به على جهة الإخبار أنّه كانَ قَتَلَهُ ليلاً؛ وإنما هو كقوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (الأنفال: ١٦)، ولو كان المعنى وقع على ظاهر اللَّفظ دونَ المستعمل في الكلامِ من عادات الناس كان من فرَّ من الزَّحفِ ليلاً لم يلزمْه وَعيد، وإنما وقع الكلامُ على ما عليه الأغلبُ من ساعاتِ أعمال الناس وذلك هو النّهارُ دون اللّيل... كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الكهف: ٢٣-٢٤).

.. وإذا كان المعنى فيه والغايَةُ التي جرى إليها اللفظ إنما هو على ما وصفنا فليس بين أن يقول: أفعَلُ ذلك بعْدَ طرْفَةٍ، وبين أن يقولَ أفعَلُ ذلك بَعْدَ سنةٍ فرق)[٣٨].

القاعدة الرابعة: **حمل اللفظ على السلامة فيما يخص أزواج الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-** ذكر الجاحظ هذه القاعدة عند تعرضه لتفسير قول الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ (التحريم: ١٠)، فهذه الآية تدلُّ على أنَّه لم يَعْنِ الخيانَةَ في الفرْج، لأن اسم الخيانة قد يقع (على ضروب متعددة)[٣٩].

(٣٧) الحيوان، (٢٤٩/٣).
(٣٨) الحيوان، (٤١٢/٣-٤١٣)، بتصرف.
(٣٩) المصدر السابق، (٥٩/٤).

المسألة الثانية: جوانب من تفسيره القرآن بالقرآن

الجاحظ كغيره من العلماء يحشد الآيات الدالة على ما ذهب إليه ويفسر الآية بالآية، ويوضح المعنى الذي ذهب إليه في الآية بما ورد واضحاً جلياً في آية أخرى، ومن أمثلة ذلك ما أورده في باب: هجاء ضروب من الحيوان. قال الجاحظ: استدل معبدٌ على جواز قتل الكلب بقوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٥–١٧٦). قال أبو إسحاق: وإن كنتَ إنَّما جعلتَ الكلب شرّ الخلق بهذه العلَّة فقد قال على نسق هذا الكلام: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩)، فالذي قال في الإبل والبقَر والغنَم أعظم، فَأَسْقِطْ من أقدارها بقدر معنى الكلام. وأدنى ذلك أن تُشرِك بين الجميع في الذمّ، فإنَّك متى أنصفتَ في هذا الوجه دعاك ذلك إلى أن تُنْصِفها في تتبُّع ما لها من الأشعار والأمثال والآيات كما تتبَّعت ما عليها[٤٠].

قال الجاحظ بعد أن ذكر ما قيل في مديح الكلب وذم غيره من الحيوانات: وهذا كثير، ولعمري لو جُمِع كلُّه لكان مثلَ هِجاء الناس للكلب، وكذلك لو جمع جميعُ ما مُدِح به الأسدُ فما دُونه، والأمثالُ السائرةُ التي وقعت في حَمد هذه الأشياء؛ لَمَا كانتْ كلُّها في مقدارِ مديح الكلب، فهذه حُجَّتُنَا في مَرتبةِ الكلب على جميع السباع والبهائِم[٤١]. واستدل على كلامه هذا بكلب أصحاب الكهف حيث قال: قال الله تعالى لنبيِّه -صلى الله عليه وسلم-: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (الكهف: ٩–١٠)، فخبَّر كما ترى عن

(٤٠) الحيوان، (٣٥٦/١).
(٤١) المصدر السابق، (٣٥٦/١).

دعائهم وإخلاصهم، ثمَّ قال جلّ وعزَّ مبينا صفاتهم وحالهم: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا .... ﴾ (الكهف: ١٠-١٨)، ثمّ قالَ بعدَ هذه الصِّفة لحالهم والتمكين لهم من قلوب السَّامعين والأُعجوبةِ التي أتاهم بها: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ (الكهف: ١٨)، فخبَّر أنَّهم لم يستصحبوا مِن جميع مَن يألفُ النَّاس ويرتفقون به، ويسكنون إليه شيئاً؛ غيرَ الكلب...، وفي قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ (الكهف: ٢٢)، دَلِيلٌ عَلَى أنَّ الكلبَ رفيعُ الحال، نبيه الذِّكر، إذ جُعِل رابعَهم، وعُطف ذِكْرُه على ذكرهِمْ، واشتقَّ ذكْره من أصل ذكرهمْ؛ حتَّى كأنَّه واحدٌ منهم، ومن أكفائهم أوْ أشباههِم أو ممَّا يقاربهم، ولولا ذلك لقال: سيَقُولون ثلاثَةٌ معهم كلبٌ لهم وبينَ قول القائل معهم كلبٌ لهم وبين قوله: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ ﴾، فرقٌ بيِّن، وطريق واضح[٤٢].

المسألة الثالثة: تفسيره للقرآن بأقوال الصحابة والتابعين

الجاحظ كغيره من العلماء يعتمد على أقوال الصحابة والتابعين في تفسير الآيات القرآنية، وينتقد ما يراه مرجوحاً، ففي موضوع "ما جاء في خصاءِ الدوابّ": ذكر الجاحظ في ذلك قولين[٤٣]، معتمداً على أقوال الصحابة والتابعين وأئمة أهل التفسير: أحدهما: تحريم خصاء الدواب، والثاني: جوازه.

أما الأول فقد نقله عن: عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وأنس بن مالك، وعاصم بن عبد الله بن عمر، وعبيد الله بن عبد الله بن مسعود، والحسن، ونافع، وعكرمة والزهري -رضي الله تعالى عنهم- مفسرين قول الله تعالى: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ (النساء: ١١٩)، أنه خصاء البهائم، فعن الشعبيّ قال: قرأت كتابَ عمر -رضي الله تعالى عنه- إلى سعد يَنْهَى عن حذْف أذناب الخيل وأعرافها، وعن خصائها. ثم ذكر روايات عن عدد من السلف

(٤٢) المصدر السابق، (٢/١٨٨-١٩٠).
(٤٣) الحيوان، (١/ ١٧٧-١٨٠)، بتصرف.

وأما الثاني فهو رأي: عطاء وابن سيرين وطاووس وإبراهيم بن محيريز والنخعي ورواية عن الحسن، فعن أبي جرير قال: أخبرني ابن جُريج عن عطاء أنَّه لم يَرَ بأساً بخصاء الدواب. ثم ذكر رواياتهم.

رأي الجاحظ:

أيد الجاحظ القول الأول وشنع على مجاهد تكذيبه قول عكرمة، وعلى سعيد بن جبير تخطيئه إياه، مبيناً أنه لا يخصص عموم القرآن؛ إلاَّ الوحي المتمثل بالقرآن الكريم أو برسول الله –صلى الله عليه وسلم- فقال: فمن العجب أن الذي قال عكرمة هو الصواب، ولو كان هو الخطأ لما جاز لأحد أن يقول له: كذبت، والناسُ لا يضعون هذه الكلمةَ في موضِع خطأ الرأي ممَّن يُظَنُّ به الاجتهاد وكان ممَّن له أن يقول، ولو أنَّ إنساناً سمِع قولَ الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾، قال: إنَّما يعني الخِصاء لم يقبل ذلك منه لأنَّ اللفظ ليست فيه دلالةٌ على شيءٍ دونَ شيء، وإذا كان اللفظُ عامّاً لم يكن لأحدٍ أن يقصِد به إلى شيءٍ بعينه؛ إلاَّ أن يكون النبي -صلى الله عليه وسلم- قال ذلك مع تلاوةِ الآية، أو يكونَ جبريلُ عليهِ السلام قال ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم-)[٤٤].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ (الأنفال: ٣٥)، اعتمد في تفسيرها على قول ابن عباس –رضي الله عنهما، قال: كان قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، يمكو حول البيت، فيسمع ذلك من حراء. قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾، فالتصدية: التصفيق. والمكاء: الصفير، أو شبيه بالصفير)[٤٥]. ونقل عنه أيضاً قوله: (الهوى إله معبود وتلا قوله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ (الجاثية: ٢٣))[٤٦].

(٤٤) الحيوان، (١/ ١٧٩-١٨٠).
(٤٥) البيان والتبيين، (١/١٢٣).
(٤٦) البيان والتبيين، (١/٢٣٥).

كما ينقل عن عائشة -رضي الله عنها- تفسيرها لقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤)، حينما سئلت عن خلق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالت: «خلق القرآن»، وتلت قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾)[٤٧].

وينقل عن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- قوله: (من أعطى الدعاء لم يحرم الإجابة، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر: ٦٠)، ومن أعطى الشكر لم يحرم الزيادة؛ لقوله عز وجل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (إبراهيم: ٧)، ومن أعطى الاستغفار لم يحرم القبول لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٩٩))[٤٨]

كما ينقل عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يخطب الناس وهو يقول: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه من ذلك الصبر، إلّا كان ما عاضه الله أفضل مما انتزع منه، متأولاً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر: ١٠))[٤٩].

المسألة الرابعة: **تفسيره القرآن بالرجوع إلى اللغة**.

اللغة العربية هي جوهر علم الجاحظ، وتخصصه الأساس، فلا عجب أن يعتمد عليها عند تفسيره للقرآن الكريم، فعلى سبيل المثال يرى الجاحظ أن أهل البدو: يشمل العرب والعجم جميعاً حيث يقول: إن لفظة "بدو" تشمل العرب والعجم جميعاً من حيث الاستعمال اللغوي، ويستدل على كلامه بقول الله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ (يوسف: ١٠٠)، ومعلوم أن إخوة يوسف لم يكونوا عرباً[٥٠].

---

(٤٧) المصدر السابق، (٢٨/٢).
(٤٨) المصدر السابق، (٣: ٢٨٨-٢٨٩).
(٤٩) المصدر السابق، (١٤٥/٣).
(٥٠) الحيوان، (١٩٢/٢)، بتصرف.

ويفسر الخضرة بلون الريحان والبقول؛ فيقول: وأصل الخضرة إنَّما هو لون الرَّيحان والبقولِ، ثم جعلوا بعدُ الحديدَ أخضرَ، والسماء خضراء حتّى سمَّوا بذلك الكُحْل واللّيل. قال الشَّمَّاخ بنُ ضرار:

ورُحْنَ رَواحاً مَنْ زَرُودَ فنازعت زُبالةَ جلباباً من الليل أخضرا

وقال الرّاجز:

حتَّى انتضاه الصُّبح من ليلٍ خَضِرْ مثل انتضاء البَطَلِ السَّيفَ الذّكَرْ

نضو هوى بالٍ على نِضَوِ سَفَرْ

وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدۡهَآمَّتَانِ﴾ (الرحمن: ٦٢–٦٤)، قال: خضراوان سوداوان، ويقال: إن العراقَ إنَّما سمِّي سواداً بلون السَّعَف الذي في النّخل ومائه. والأسودان: الماء والتمر والأبيضان: الماء واللبن، والماء أسودُ إذا كان مع التّمر، وأبيض إذا كان مع اللّبن[٥١].

المسألة الخامسة: تفسيره المفردات الغريبة في القرآن الكريم:

ألفاظ القرآن –عند الجاحظ-: هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم. وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة[٥٢]، لذا فقد اعتنى الجاحظ بها وحاول تبيين معانيها ليسهل فهم القرآن الكريم، ومن تلك الألفاظ الغريبة التي ذكرها الجاحظ الآتي:

(٥١) المصدر السابق، (٢٤٦/٣).
(٥٢) أبو القاسم؛ الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة -لبنان، (د. ت)، ص: ٦.

كلمة تسيمون في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ (النحل: ١٠)، قال الجاحظ: (والسوم: الرعي. وسامت تسوم، أي رعت ترعى)(٥٣).

كلمة لازب في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ (الصافات: ١١)، قال الجاحظ: (واللازب: اليابس. واللزبات: السنون الجدبة)(٥٤).

كلمة عرم في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ (سبأ: ١٦)، قال: (والعرم: المسناة، وأن الذي فجر المسناة وسبب لدخول الماء الفأرة)(٥٥).

كلمتي: مكاء وتصدية في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ (الأنفال: ٣٥)، قال: (فالتصدية: التصفيق، والمكاء: التصفير، أو شبيه بالصفير)(٥٦).

كلمة منسأته في قوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ (سبأ: ١٤)، قال: (المنسأة هي العصا)(٥٧).

المرعى في قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (النازعات: ٣١)، قال هو: (النجم والشجر والملح واليقطين والبقل والعشب، فذكر ما يقوم على ساق، وما يتفنن، وما يتسطح، وكل ذلك مرعى)(٥٨).

الماعون في قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (الماعون: ٧)، قال: (والماعون: الماء والنار والكلأ)(٥٩).

والجاحظ يرى أن القرآن الكريم كما يشتمل على الحقيقة فهو يشتمل على المجاز – أيضاً-، ومن ذلك أنه استعمل بعض الأسماء في المعنى العرفي، ناقلاً لها من المعنى الحقيقي

---

(٥٣) البيان والتبيين، (١٨٤/١).
(٥٤) المصدر السابق، (١٩٩/١)، بتصرف يسير.
(٥٥) الحيوان، (٢٥٠/٥).
(٥٦) البيان والتبيين، (١٢٣/١).
(٥٧) المصدر السابق، (٣٠/٣).
(٥٨) المصدر السابق، (٣٢/٣).
(٥٩) البيان والتبيين، (٣٤/٣).

التي وضعت له أولاً، فمن ذلك (اسم منافق لمن راءى بالإسلام واستسرّ بالكفر، أُخِذ ذلك من النافقاء والقاصعاء والدامّاء، ومثل المشرك والكافر، ومثل التيمّم. قال الله تعالى: ﮋﭽ ﭾﮊ (المائدة: ٦)، أي: تحرّوا ذلك وتوخّوه. وقال: ﮋﭽ ﭾ ﭿ ﮀﮊ (المائدة: ٦)، فكثر هذا في الكلام حتّى صار التيمّم هو المسح نفسه. وكذلك عادتهم وصنيعهم في الشيء إذا طالت صحبتهم وملابستهم له)[٦٠]، كالغائط: فإنه وإن كان في أصل اللغة للموضع المطمئن من الأرض؛ غير أنه قد اشتهر في عرفهم بالخارج المستقذر من الإنسان، حتى إنه لا يفهم من ذلك اللفظ عند إطلاقه غيره، ويمكن أن يكون شهرة استعمال لفظ الغائط من الخارج المستقذر من الإنسان؛ لكثرة مباشرته، وغلبة التخاطب به، مع الاستنكاف من ذكر الاسم الخاص به؛ لنفرة الطباع عنه فكنوا عنه بلازمه[٦١].

المسألة السادسة: استنباطه لكثير من اللطائف والإشارات القرآنية

يتكلم الجاحظ عن اللطائف والإشارات القرآنية سواء اللطائف اللغوية، أو اللطائف البلاغية أو الإشارات البديعية الدالة على عظمة الخالق سبحانه، نذكر من تلك اللطائف والإشارت الآتي:

اللطيفة الأولى: عند قوله تعالى: ﮋﭑ ﭒ ﭓ ﭔﮊ (الأنعام: ٩)، قال: (لأنّ الإنسان عن الإنسان أفهم، وطباعه بطباعه آنس؛ وعلى قدر ذلك يكون موقع ما يسمع منه)[٦٢].

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﮋﭬ ﭭ ﭮﮊ (الواقعة: ٥٦)، قال: والعذاب لا يكون نزلاً، ولكن لما قام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم؛ سمي باسمه[٦٣].

اللطيفة الثالثة: ما ذكره في أجناس الذبان ودلالة الدقيق من الخلق على الله، فقد تكلم الجاحظ بكلام نفيس مستعرضاً بديع خلق الله، وكيف أن الحقير من مخلوقاته يدل عليه كما يدل العظيم منها، وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد[٦٤]

(٦٠) الحيوان، (٣٣٢/١).
(٦١) الآمدي؛ علي بن محمد، أبو الحسن، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: سيد الجميلي، دار الكتاب العربي –بيروت، ط: ١، (١٤٠٤هـ)، (٥٣/١).
(٦٢) الحيوان، (٦٢/١).
(٦٣) البيان والتبيين، (١٥٣/١).
(٦٤) البيت لأبي العتاهية، ينظر: الأصفهاني؛ علي بن الحسين؛ أبو الفرج، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر –بيروت، ط: ٢، (د. ت)، (٣٩/٤).

كما يحث على التفكر والاتعاظ في كون الله المنظور وما خلق فيه وأودع من أسرار مخلوقاته الدالة عليه؛ لأن إهمال ذلك يؤدي إلى الجحود والبعد عن الله تعالى فيقول: (أوصيك أيُّها القارئ المتفهّم وأيهُا المستمعُ المنصت المصيخ ألاّ تحقِرَ شيئاً أبداً لصغر جثَّته، ولا تستصغر قدرَه لقلَّة ثمن. ثمّ اعلمْ أنَّ الجبلَ ليس بأدلّ على الله من الحصاة، ولا الفَلكَ المشتمل على عالَمنا هذا بأدلَّ عَلَى الله من بَدَن الإنسان، وأنَّ صغيرَ ذلك ودقيقَهُ كعظيمهِ وجليله، ولم تفترقِ الأمورُ في حقائقها وإنما افترقَ المفكّرون فيها، ومَن أهمَل النَّظر وأغفَلَ مواضع الفَرْق وفَصولَ الحدود. وبعد كلام طويل يقول: وضرب الله عزَّ وجلَّ لضعفِ النَّاسِ وعجزهم مثلاً؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ (الحج: ٧٣). فقال بَعضُ النَّاس: قَدْ سَوّى بين الذّبّان والنّاسِ في العجْز. وقالوا: فقدْ يولِّد النَّاس من التَّعفين: الفَراش وغيرَ الفُراش؛ وهذا خلقٌ على قوله: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ (المائدة: ١١٠)، وعلى قوله: ﴿أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٤)، وعلى قول الشاعر:

وأرَاكَ تفْري مَا خلَقْتَ وبَعْـ ... ـض الْقومِ يخلُقُ ثمَّ لا يُفرِي[٦٥]

قيل لهم: إنما أراد الاختراع ولم يرد التَّقدير[٦٦].

اللطيفة الرابعة: ذكرها عند تأويل قوله تعالى: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (النحل: ٨)، قال الجاحظ: وقد يتّجه هذا الكلام في وجوه: **أحدها** أن تكون ها هنا ضروب من الخلق لا يعلم بمكانهم كثير من الناس، ولا بدّ أن يعرف ذلك الخلق معنى نفسه، أو يعلمه صفوة جنود الله وملائكته، أو تعرفه الأنبياء، أو يعرفه بعض الناس، لا يجوز إلّا ذلك. أو يكون الله عزّ وجلّ إنما عنى أنّه خلق أسباباً، ووهب عللاً، وجعل ذلك رفداً لما يظهر لنا ونظاماً. وكان بعض المفسّرين يقول: من أراد أن يعرف معنى قوله: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا

(٦٥) البيت لزهير ابن أبي سلمى، ينظر: المصري؛ سليمان بن بنين بن خلف بن عوض تقي الدين؛ أبو الربيع، إتفاق المباني وافتراق المعاني، تحقيق: يحيى عبد الرؤوف جبر، دار عمار -عمان، ط: ١، (١٩٨٥م)، ص: ١٩٣.

(٦٦) الحيوان، (٣/٣٨٣) وما بعدها.

تَعۡلَمُونَ ﴾، فليوقد ناراً في وسط غيضه، أو في صحراء بريّة؛ ثمّ ينظر إلى ما يغشى النار من أصناف الخلق من الحشرات والهمج فإنّه سيرى صوراً، ويتعرّف خلقاً لم يكن يظنّ أنّ الله تعالى خلق شيئاً من ذلك العالم. وعلى أنّ الخلق الذي يغشى ناره يختلف على قدر اختلاف مواضع الغياض والبحار والجبال، ويعلم أنّ ما لم يبلغه أكثر وأعجب. ثم يبين الجاحظ رأيه فيقول: وما أردّ هذا التأويل، وإنّه ليدخل عندي في جملة ما تدلّ عليه الآية. ومن لم يقل ذلك لم يفهم عن ربّه ولم يفقه في دينه)(٦٧).

اللطيفة الخامسة: في قوله عز وجل: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ (مريم: ٦٢)، وليس في الجنة بكرة ولا عشي، ولكن على مقدار البكر والعشيات(٦٨).

اللطيفة السادسة: **ذكرها عند قوله تعالى**: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ (المائدة: ٤). قال الجاحظ: (وقد قال الله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡ﴾، **فقال لنبيّه**: ﴿قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾، **فاشتق لكلّ** صائد وجارح كاسب من باز، وصقر، وعقاب، وفهد، وشاهين، وزرّق، ويؤيؤ، وباشق، وعناق الأرض، من اسم الكلب. وهذا يدلّ على أنّه أعمّها نفعاً، وأبعدها صيتاً)(٦٩).

اللطيفة السابعة: وعلى هذا قول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ (غافر: ٤٩). والخزنة: الحفظة. وجهنم لا يضيع منها شيء فيحفظ ولا يختار دخولها إنسان فيمنع منها، ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن سميت به(٧٠).

اللطيفة الثامنة: **حب الأوطان فطرة وطبيعة**: قال الجاحظ في باب الإلف والأنْس والنِّزاعُ والشّوق: وذلك يَدُلُّ على ثبات العهد، وحفْظِ ما ينبغي أن يُحفَظ، وصوْنِ ما ينبغي أن يصان، وإنه لخلق صِدْق في بني آدم؛ فكيفَ إذا كان ذلك الخلقُ في بعض الطير! وقد قالوا: عمَّرَ الله البُلدان بحبِّ الأوطان، وقال ابن الزُّبير: ليس النَّاسُ بشيء مِنْ أقسامهم أقنَعَ

(٦٧) الحيوان، (١١٠/٢-١١١)، بتصرف يسير.
(٦٨) البيان والتبيين، (١٥٣/١).
(٦٩) الحيوان، (١٨٧/٢-١٨٨).
(٧٠) البيان والتبيين، (١٥٣/١).

منهم بأوطانهم. وأخبر الله عزَّ وجلَّ عن طبائع النَّاس في حبِّ الأوطان فقال: ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ (البقرة: ٢٤٦)، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ (النساء: ٦٦))[٧١].

اللطيفة التاسعة: عجائب وخصائص النملة: تكلم الجاحظ في هذا المقام عن خصائص النمل وما حباها الله تعالى من عجائب، ومن ذلك: لغة التخاطب والتفاهم وقد أنكر على من ينكر تخاطب النمل بقوله: (ومن العجب أنَّك تُنْكر أنَّها توحي إلى أخْتِها بشيءٍ، والقرآنُ قد نطق بما هو أكثرُ من ذلك أضعافاً... وقد قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ (النمل: ١٨–١٩)، فقد أخبر القرآنُ أنها قد عرَفَتْ سليمان وأثبتتْ عيْنَهُ، وأنَّ علْمَ منطقها عندَه، وأنها أمرتْ صُويحباتها بما هو أحزَمُ وأسلم، ثمَّ أخْبَرَ أنها تعرِفُ الجنودَ من غير الجنود، وقد قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾.)[٧٢]. ثم يستطرد في ذكر قصة النبي سليمان -عليه السلام- مع النملة وأنه مرَّ على واد معروف باسم وادي النمل وأنه كان حمى لهن ثم يستطرد في ذكر ما ورد في النمل من أحاديث وآثار منها حديث ابن عباس أنَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (مِنْ الدَّوابِّ أربَعٌ لا يُقْتَلْنَ: النّملة والنَّحْلة والصُّرَد والهُدهُد)[٧٣]. ومنها حديث الحسن بن سعد -مولى علي بن عبد الرحمن بن عبد الله- قال: نزل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- منزلاً فانطلق لحاجته، فجاء وقد أوقد رجلٌ على قريَةِ نَمْلٍ؛ إمَّا في شجرةٍ، وإمَّا في أرض، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (مَنْ فَعلَ هذا أطْفِئها

---

(٧١) الحيوان، (٣/٢٢٧-٢٢٨).
(٧٢) المصدر السابق، (٤/٨-٩).
(٧٣) رواه أحمد وأبو داود، بلفظ: (نهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن قتل أربع من الدواب:....)، ينظر: مسند أحمد، مصدر سابق، حديث رقم: (٣٠٦٦)، (٥/١٩٢)، والسجستاني؛ أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا -بيروت، حديث رقم: (٥٢٦٧)، (٤/٣٦٧)، وصححه الألباني، ينظر: الألباني؛ محمد ناصر الدين، صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف -الرياض، ط: ٥، (د. ت)، حديث رقم: (٢٩٩٠)، (٣/٨٥).

أطْفئها)(٧٤). وحديث أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (نزَلَ نبيٌّ من الأنبياء تحتَ شَجَرةٍ فقرَصَتْهُ نَمْلَةٌ، فأمَرَ بجَهازه فأُخرِجَ مِنْ تحتها، ثمَّ أمرَ بقَرْيةِ النَّمْلِ فأُحرقَتْ، فأوْحى اللهُ إليه: أفي أن قَرَصَتْكَ نملةٌ أهلكتَ أُمَّةً من الأممِ يسبِّحون الله تعالى فهلاَّ نمْلةً واحدةً)(٧٥).

ويختتم حديثه عن النمل بتأويل آية النمل قائلاً: وحدثني أبو الجهجاه قال: سأل أبو عمرو المكفوف عن قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾، فقلت له: إن نذيرًا يعجب منه نبيٌّ من الأنبياء ثمَّ يعظمُ خطرهُ حتى يُضحِكه لَعَجيب!(٧٦). ولعل العجب من هذا التأويل إذ كيف يستظرف النمل ولا يستظرف حكاية النملة وتحذيرها قومها من الخطر المؤكد، ودلالتهن على مكان النجاة؛ ثم الاعتذار لسليمان –عليه السلام- ولجنده في حين لو حدثت لهن إبادة؛ فإن سليمان وجنوده غير قاصدين ذلك؛ ولا متعمدين إلحاق الأذى والضرر بهن!

اللطيفة العاشرة: **الإشارة إلى عَجز الإنسان وصِغَرِ قَدْرِهِ**: قال الجاحظ: وخبِّرني عن الله تعالى أمَا كان قادراً أن يعذِّب الكنعانيينَ والجبابرة والفراعنة وأبناءَ العمالقة.. ثم قال: ولِمَ كان النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- إذا رأى على جسده البَثْرةَ ابتهلَ في الدعاء، وقال: (إن الله إذا أراد أن يعظم صغيراً عظمه)، ولم قال لنا: ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ (الأعراف: ١٣٣)، فافهمْ عنه تعالى ذكره وتقدست أسماؤه قوله: ﴿ءَايَٰتٖ﴾ ثم قال: ﴿مُّفَصَّلَٰتٖ﴾، فهل وقفت قطُّ عَلَى هذه الآياتِ؟ وهل توهّمْت تأويلَ قوله: هذا آية وغيرُ آية؟ وهل وقفت علَى فصل ما بين الآية وغير الآية؟ وإذا كانت مفصَّلات كان ماذا؟ وإذا لم تكن مفصلات كان ماذا؟ فافهم قوله: ژج جژ، وما

(٧٤) قال الهيثمي: رواه أحمد، وفيه عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي وقد اختلط. ينظر: الهيثمي؛ نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر –بيروت، (١٤١٢هـ)، حديث رقم: (٦٠٨٥)، (٤/٥٨).

(٧٥) رواه البخاري ومسلم، البخاري؛ حديث رقم: (٣٣١٩)، (٤/١٣٠)، والقشيري النيسابوري؛ مسلم بن الحجاج؛ أبو الحسن، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي –بيروت، (د. ت)، حديث رقم: (٢٢٤١)، (٤/١٧٥٩).

(٧٦) الحيوان، (٤/١٧-٢٠).

في الأرض أنقصُ معرفة وعلماً، ولا أضعفُ قوة وبطشاً، ولا أوْهَنُ رُكناً وعَظماً من ضِفدِع، فقد قال كما ترى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ﴾، فقد جعله كما ترى أفضل آياته، والعذابَ الذي أرسله عَلَى أعدائه. وقد قال جل وعز: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ (المؤمنون: ٢٧)، فأظهر الماء جلّ ثناؤه من أبعد مواضع الماء من ظنونهم، وخَبَّرَنا بذلك كي لا نخلِيَ أنفسنا من الحذر والإشفاق، ولنكون علماء بالعِلم الذي أعطانا، ولنكون راجين خائفين؛ ليصحّ الاختيار، ويحسُنَ الاختبار، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (المؤمنون: ١٤)، ما أحسنَ ما قدَّر وأتقَنَ ما برأ.

وكان السبب الذي سلطه الله تعالى عَلَى العَرِم وهو مُسَنَّاةُ جَنّتَيْ بلادِ سبإ؛ جُرَذاً، فهو الذي خَرقه وبدَّل نعمتَهم بؤساً، ومُلكهُمْ يَبَاباً، وعِزَّهمْ ذلاًّ، إلى أن عادوا فقراء، فقال الله: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾(سبأ: ١٦)، هذا بعد أن قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾(سبأ: ١٥-١٦))[٧٧].

اللطيفة الحادية عشرة: الامتنان على الخلق بالنار

يبين الجاحظ أن الله تعالى ذكر النار فامْتَنّ بها على أهل الأرض من وجهين: أحدهما قوله عزّ وجلّ: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ (يس: ٨٠)، فَجَعَلَها من أعظم الماعون معونة وأخفها مَؤُونة. وأما الوجه الآخرُ من الإمتنان بها: فكقوله تعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ (الرحمن: ٣٥)، ثم قال على صِلَة الكلام: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن: ٣٦)، وليس يريد أنّ إحراقَ الله عز وجلَّ العبدَ بالنار من آلائه ونعمائه، ولكنه رأى أن الوعيدَ الصادق إذا كان في غاية الزجر عما يُطغيه ويُرْدِيه؛ فهو من النعم السابغة والآلاء العظام...[٧٨].

(٧٧) الحيوان، (٥/٥٤٥)، وما بعدها.
(٧٨) الحيوان، (٥/٩٧-٩٩)، بتصرف.

اللطيفة الثانية عشرة: نفع الحساب

يرى الجاحظ أن القرآن الكريم قد أشار إلى الحساب ومنافعه وبين أضرار فقده؛ فيقول: (ونفع الحساب معلوم، والخَلَّةُ في موضعِ فقدِه معروفة، قال الله **تعالى**: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ (الرحمن: ١-٤)، ثم قال: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ (الرحمن: ٥)، وبالبَيانِ عَرَفَ الناسُ القرآنَ. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾ (يونس: ٥)، (فأجْرَى الحسابَ مُجرَى البيان بالقرآن، وبحُسْبان منازلِ القمر عَرَفنا حالاتِ المدِّ والجزْر، وكيف تكونُ الزيادةُ في الأهِلَّة، وأنصافِ الشهور، وكيف يكونُ النقصانُ في خلال ذلك، وكيف تلك المراتبُ وتلك الأقدار)[٧٩].

المسألة الثامنة: رأيه في التفسير المتكلف:

يشنع الجاحظ على من يتكلف في التفسير إلى حد الخروج بالآية عن سياقها القرآني، وإعجازها البياني؛ لذا فهو ينكر على القصاص الخياليين، والوعاظ المبالغين، ومن ينقل من الإسرائيليات ما يجاوز حد العقل، ويناقض الفطرة، وأصحاب المذاهب الباطلة التي تؤول كل وعد وخير في القرآن؛ أن المراد به هم ومن سار على فلكهم، وكل وعيد وعذاب في القرآن؛ أن المراد به مخالفوهم؛ وقد (قال الله وهو يخبر عن نبيّه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ (ص: ٨٦)، وليس يؤتى القوم إلّا من الطمع، ومن شدّة إعجابهم بالغريب من التأويل)[٨٠]، ومن صور التكلف في التفسير ما يأتي:

١. ما زعموا من تلاقح الجن والإنس:

وزعموا أنَّ التناكُح والتلاقُح قد يقع بين الجنِّ والإنس؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ (الإسراء: ٦٤)، وذلك أن الجِنّيَّاتِ إنَّما تعرِض لصَرْع رجالِ الإنس على جهة التعشُّق وطلبِ السِّفاد، وكذلك رجال الجنِّ لنساء بني آدم، ولولا ذلك لعرض

(٧٩) المصدر السابق، (١/ ٤٦-٤٧).
(٨٠) الحيوان، (١/٣٤٦).

الرِّجالُ للرِّجال والنساءُ للنساء ونساؤهم للرجال والنساء)[٨١]. ومن زعَم أن الصَّرْعَ من المِرَّة؛ ردَّ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ (البقرة: ٢٧٥)، وقال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ (الرحمن: ٥٦)، فلو كان الجانُّ لا يفتضُ الآدَميَّاتِ ولم يكنْ ذلك قطُّ وليس ذلك في تركيبِه لَما قال الله تعالى هذا القول[٨٢]. ويقولون: تزَّوج عمرو بن يربوعٍ السّعلاة...، وهم يتأوَّلون قوله عز ذكره: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ﴾ (الإسراء: ٦٤)، وقوله عز وجل: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾، قالوا: فلو كان الجانّ لم يُصِب منهنَّ قَطّ، ولم يأتهنّ، ولا كان ذلك مما يجوز بين الجن وبين النساء الآدميات؛ لم يقل ذلك. وتأوَّلوا قوله عزّ وجل: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (الجن: ٦)، فجعل منهنَّ النِّساء، إذ قد جعل منهم الرِّجال، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ (الكهف: ٥٠). قال الجاحظ: والأعراب يتزيّدون في هذا الباب، وأشباهُ الأعراب يغلطون فيه، وبعضُ أصحابِ التأويل يجوّز في هذا الباب ما لا يجوز فيه[٨٣].

٢. تركيب النَّسْنَاسَ[٨٤]:

وزعموا أنّ النَّسْنَاسَ تركيبُ ما بين الشِّق والإنسان، ويزعمون أنَّ خلقاً من وراء السدِّ تركيبٌ من النَّسْنَاسِ، والناس والشقّ ويأجوج ومَأجوج، وذكروا عن الوَاق واق والدوَال باي أنهُمْ نِتاجُ ما بينَ بعض النَّباتِ والحيوان، وذكروا أنَّ أمَّةً كانت في الأرض فأمرَ الله تعالى الملائكة فأجلوَهم؛ وإيَّاهم عَنَوا بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ

(٨١) الحيوان، (١/ ١٨٨).
(٨٢) المصدر السابق، (١/ ١٨٨).
(٨٣) المصدر السابق، (١٦١/٦)، وما بعدها.
(٨٤) قال كراع: النِّسْناسُ فيما يقال: دابة في عداد الوحش، تصاد وتؤكل، وهي على شكل الإنسان، بعين واحدة ورجل ويد، تتكلم مثل الإنسان. وقال المسعودي في النسناس: حيوان كالإنسان، له عين واحدة، يخرج من الماء ويتكلم، وإذا ظفر بالإنسان قتله. وفي المجالسة عن ابن إسحاق: أنهم خلق باليمن. وقال أبو الدقيش: يقال: إنهم من ولد سام بن سام إخوة عاد وثمود، وليس لهم عقول، يعيشون في الآجام على شاطيء بحر الهند، والعرب يصطادونهم ويكلمونهم، وهم يتكلمون بالعربية ويتناسلون، ويقولون الأشعار، ويتسمون بأسماء العرب. ينظر: الحسيني؛ محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق، أبو الفيض، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، (د. ت)، (١٦/ ٥٥٢).

ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ (البقرة: ٣٠)، ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ لآدم وحواء: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ﴾ (البقرة: ٣٥)، فهذا يدلُّ على أن ظالماً وظُلماً قد كان في الأرض... وكان يقال لتلك الأمَّة مهنا... وزعم المجوس أنَّ الناسَ من ولد مهنة ومهنينة وأنَّهما تولدا فيما بينَ أرحام الأرَضين ونطفتين ابتدرتا من عينَي ابن هُرمُز حين قتله هرمر)[٨٥].

رأي الجاحظ:

الجاحظ كغيره من المعتزلة الذين يردون وينكرون كل ما جاوز حد العقل؛ لذا فهو ينكر كل ما أورده آنفاً فيقول: (وحماقات أصحابِ الاثنَين كثيرةٌ فِي هذا الباب، ولولا أنِّي أحببْتُ أن تسمَعَ نوعاً من الكلام ومبلغَ الرأي، لتُحدِثَ لله تعالى شكراً على السلامة؛ لما ذكرت كثيراً من هذا الجنس)[٨٦].

٣. المحروم هو الكلب:

ولمّا سمعوا بعض المفسّرين يقول في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾(المعارج: ٢٤–٢٥)، إنّ المحروم هو الكلب؛ وسمعوا في المثل: (اصنعوا المعروف ولو إلى الكلب)؛ عطفوا عليه واتّخذوه في الدّور، ثم يشنع عليهم فيقول: (وعلى أنّ ذلك لا يكون إلّا من سفلتهم وأغبيائهم، ومن قلّ تقزّزه وكثر جهله، وردّ الآثار إمّا جهلا وإمّا معاندة)[٨٧].

٤. تكلفهم في معنى النعيم:

قال الجاحظ: وقالوا في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (التكاثر: ٨)، قالوا: النعيم: الماء الحارّ في الشتاء، والبارد في الصيف[٨٨].

(٨٥) الحيوان، (١/١٨٨-١٩٠).
(٨٦) المصدر السابق، (١/١٩٠).
(٨٧) المصدر السابق، (١/١٩٣).
(٨٨) الحيوان، (١/٣٤٧).

٥- رده على الغالية وأهل الأهواء والطاعنين في القرآن الكريم:

ينتقد الجاحظ الغالية من الرافضة الذين يفسرون آيات القرآن في أئمتهم، وآيات العذاب في مخالفيهم، فمن ذلك: ما أوردته الغالية في أبي منصور؛ زعيم المنصورية أن الكِسف المعني بقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ (الطور: ٤٤)، قال الجاحظ: (وأما حميدة فقد كانت لها رياسة في الغالِية وهي ممَّن استجاب لليلى السبائية الناعِظية، والميلاءُ حاضِنة أبي منصور؛ صاحب المنصوريَّة، وهو الكِسْف قالت الغالية: إيَّاه عَنَى اللهُ تبارك وتعالى بقوله: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾)[٨٩].

وعند تعرضه لتأويل قول الله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ (التين: ١)، قال: زعم زَيدُ بنُ أسلم أنَّ التِّين دمشق والزيتون فِلَسطين. وللغاليةِ في هذا تأويلٌ أرغبُ بالعِتْرة عنه وذكرِه.

وكما أن الجاحظ يرد على أهل الأهواء فإنه يرد على الطاعنين في القرآن الكريم؛ حيث يقول عند تعرضه لأجنحة الملائكة: وقد طعن قومٌ في أجنحة الملائكة وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فاطر: ١).

وزعموا أنَّ الجناحين كاليدين وإذا كان الجناح اثنين أو أَرْبَعَة، كانتْ معتدلة، وإذا كانت ثلاَثة، كان صاحبُ الثَّلاثةِ كالجادِفُ من الطَّير الذي أحدُ جناحَيه مقصوص فلا يستطيع الطّيران لعدم التعديل، وإذا كان أحدُ جناحيه وافياً والآخرُ مقصوصاً؛ اختلفَ خَلْقُه وصار بَعْضُه يذهب إلى أسفَلَ والآخر إلى فوق. وقالوا: إنَّما الجناحُ مثل اليد ووجدنا الأيديَ والأرجل في جميع الحيوان لا تكون إلاَّ أزواجاً فلو جعلتمْ لكُلِّ واحدٍ منهم مائَة جَناحٍ لم نُنْكِرْ ذلك، وإن جعلتموها أنقصَ بواحدٍ أو أكثرَ بواحدٍ لم نجوِّزه[٩٠].

(٨٩) المصدر السابق، (٣٦٨/٢).
(٩٠) الحيوان، (٢٣١/٣-٢٣٢).

رأي الجاحظ: يرد الجاحظ على هؤلاء المنكرين بكلام قوي يدل على سعة علمه ونباهة فكره: (فإذا كان ذلك ممكناً في معرفة العبد بما أعاره الربُّ جلّ وعزَّ كان ذلك في قدرة الله أجوز وما أكثر من يضيقُ صدرُه لقلَّة علمه[٩١]!

٥. النهي عن اتخاذ الدجاج في البيوت:

عن قتادة أنّ أبا موسى قال: لا تتّخذوا الدّجاج في الدّور فتكونوا أهل قرية، وقد سمعتم ما قال الله تعالى في أهل القرى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ (الأعراف: ٩٧)، قال الجاحظ: وهذا عندي من أبي موسى ليس على ما يظنّه الناس، لأنّ تأويله هذا ليس على وجه، ولكنّه كره للفرسان ورجال الحرب اتخاذ ما يتّخذه الفلّاح وأصحاب التعيّش، مع حاجته يومئذ إلى تفرّغهم لحروب العجم، وأخذهم في تأهّب الفرسان وفي دربة رجال الحرب. فإن كان ذهب إلى الذي يظهر في اللفظ فهذا تأويل مرغوب عنه[٩٢].

المطلب الثالث: **عنايته بسبب النزول**: (ولما قال النبيّ عليه الصلاة والسلام لزيد الخيل من الخير ما قال. وسمّاه زيد الخير، ما سأله زيد شيئاً، ولا ذكر له حاجة، إلّا أنّه قال: يا رسول الله، فينا رجلان يقال لأحدهما ذريح، والآخر يكنى أبا دجانة، ولهما أكلب خمسة تصيد الظباء، فما ترى في صيدهم؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ (المائدة: ٤))[٩٣]. (ونادى رجال من وفد بني تميم النبي صلّى الله عليه وسلّم باسمه من وراء الحجرات، فأنزل الله تبارك وتعالى في ذلك: ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ (الحجرات: ٤))[٩٤].

(٩١) الحيوان، (٢٣٢/٣-٢٣٥).
(٩٢) المصدر السابق، (٢٩٦/١).
(٩٣) المصدر السابق، (٢٠٤/٢-٢٠٥).
(٩٤) البيان والتبيين، (٣٣٢/٢).

المطلب الرابع: **حديثه عن القصص القرآني**: تكلم الجاحظ كثيراً عن القصص في القرآن الكريم حيث تعرض لقصة ابني آدم مع الغراب(٩٥)، وقصة سليمان مع النمل(٩٦)، وقصته مع الهدهد وملكة سبأ(٩٧)، قصة موسى مع بني إسرائيل وموتهم في التيه(٩٨)، وقصة الفيل(٩٩).

المطلب الخامس: **حديثه عن المجاز في القرآن**

الجاحظ كغيره من المعتزلة الذين يقولون بالمجاز في القرآن؛ يدل على ذلك ما ذكره عند قوله عز وجل: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾، قال: (فالعسل ليس بشرابٍ، وإنما هو شيء يحوَّلُ بالماء شراباً، أو بالماء نبيذاً، فسماه كما ترى شراباً إذ كان يجيء منه الشراب. وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا: جاءت السماءُ اليوم بأمر عظيم. وقد قال الشاعر(١٠٠):

إذا سقط السماءُ بأرْضِ قوْمٍ رعيناه وإن كانوا غِضَابَا

ومتى خرج العسلُ من جهةِ بطونها وأجوافها فقد خرج في اللغة من بطونها وأجوافها، ومَنْ حمل اللغة علي هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلاً ولا كثيراً، وهذا الباب هو مفخرُ العربِ في لغتهم، وبه وبأشباهه اتسعت، وقد خاطبَ بهذا الكلام أهل تِهامة وهُذيلاً وضواحِيَ كِنانة، وهؤلاء أصحابُ العسل، والأعرابُ أعرَف بكل صَمْغَةٍ سائلة، وعَسلة ساقطة، فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب، أو طعنَ عليه من هذه الحجة!(١٠١).

وفي موضع آخر يفرد باباً للمجاز تحت عنوان: المجاز والتشبيه الأكل، يقول فيه: فإن قلتم: فقد قال الله عزّ وجلّ في الكتاب: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ

(٩٥) الحيوان، (٣/٢١٢).
(٩٦) المصدر السابق، (٤/١٥).
(٩٧) المصدر السابق، (٤/٧٧).
(٩٨) المصدر السابق، (٤/٨٦)، و(٦/٢٦٨).
(٩٩) المصدر السابق، (٧/١٩٦).
(١٠٠) البيت لمعود الحكماء: معاوية بن مالك، ينظر: لسان العرب، مصدر سابق، (١٤/٣٩٧).
(١٠١) الحيوان، (٥/٤٢٣)، وما بعدها.

لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾(آل عمران: ١٨٣)، علِمْنَا أن الله عزّ وجلّ إنما كلمهم بلغتهم.

وقد قال أوسُ بنُ حَجَر:

فأشْرَط فيها نفسَه وهْو مُعْصِمٌ   وألقى بأسبابٍ له وتوكَّلاَ
وقد أكَلَتْ أظْفَارُه الصَّخْرُ كلما   تَعَايا عليه طولٌ مَرْقًى تَوَصَّلاَ

فجعل النحتَ والتَّنَقُّصَ أكلاً.

وقال خفَافُ بن نَدْبَة:

أبا خُرَاشَةَ أَمَّا كنْتَ ذَا نَفَرٍ   فإنَّ قوْمِيَ لمْ تَأْكلْهُمُ الضبُعُ

ويقول -أيضاً-: باب آخر في المجاز والتشبيه بالأكل، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ (النساء: ١٠)، وقوله تعالى عزَّ اسمُه: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ (المائدة: ٤٢)، وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة، ولبسوا الحُللَ، وركبوا الدوابَّ، ولم ينفقوا منها دِرْهَماً واحداً في سبيل الأكل. وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ (النساء: ١٠)، وهذا مجازٌ آخر.

وقال الشاعر في أخذ السِّنِينَ من أجزاء الخمر:

أكَلَ الدَّهْرُ ما تجسَّمَ منها   وتَبَقَّى مُصَاصَهَا المكنونا

وإذا قالوا: أكلَهُ الأسَد فإنما يذهبون إلى الأكل المعروف، وإذا قالوا: أكَلَهُ الأسْوَد؛ فإنما يعنون النَّهْشَ واللَّدْغَ والعضَّ فقط. وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُ﴾ (الحجرات: ١٢)، ويقال: هم لحوم الناس. وقال قائلٌ لإسماعيل بن حماد: أيّ اللُّحْمَانِ أطيب؟ قال: لحومُ الناس هي واللهِ أطيبُ من الدجاج، ومن

الفراخ، والعُنُوز الحُمْر. ويقولون في باب آخر: فلانٌ يأكل الناس، وإن لم يأكلْ من طعامهم شيئاً.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ (البقرة: ٢٤٩)، يريد: لم يذقْ طعمه[١٠٢]. ويقول: باب آخر في مجاز الذوق: وهو قول الرجل إذا بالغ في عقوبة عبده: ذق، وكيف ذقته، وكيف وجدت طعمه. وأما قولهم: ما ذقت اليوم ذواقاً؛ فإنه يعني: ما أكلت اليوم طعاماً ولا شربت شراباً، وإنما أراد القليل والكثير، وأنه لم يذقه فضلاً عن غير ذلك. وللعرب إقدام على الكلام ثقة بفهم أصحابهم عنهم وهذه أيضا فضيلة أخرى.

المطلب السادس: حديثه عن إيجاز القرآن:

يذكر الجاحظ أن القرآن الكريم خلى من الزوائد والفُضول، وجاء بألفاظ قليلة جامعة لمعان كثيرة؛ فيقول: وقد ذكرنا أبياتاً تُضاف إلى الإيجاز وقِلَّة الفُضول، ولي كتابٌ جَمَعْتُ فيه آياً من القرآن لتَعرِفَ بها فصل ما بينَ الإيجاز والحَذْف، وبين الزّوائد والفُضول والاستعارات، فإذا قرأْتها رأيت فضلها في الإيجاز والجَمْعِ للمعاني الكثيرةِ بالألفاظ القليلة على الَّذي كتبتُهُ لك في بابِ الإيجازِ وترك الفضول؛ فمنها قوله حينَ وصفَ خمرَ أهلِ الجنّة: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ (الواقعة: ١٩)، وهاتان الكلمتان قد جَمَعتا جميعَ عُيوبِ خمرِ أهلِ الدُّنيا. وقولُه عزّ وجل حينَ ذكر فاكهة أّهلِ الجنّة فقال: ژ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ژ (الواقعة: ٣٣)، جمع بهاتين الكلمتين جميعَ تلك المعاني. ثم يقول: وهذا كثيرٌ قد دَللتك عليه فإنْ أردته فموضعه مشهور[١٠٣].

(١٠٢) الحيوان، (٢٣/٥)، وما بعدها، بتصرف يسير.
(١٠٣) المصدر السابق، (٨٦/٣).

المطلب السابع: آراؤه العقدية

يحاول الجاحظ تدعيم مواقفه العقدية بتفسيره وتأويله المتكلف لبعض آيات القرآن الكريم، فمن ذلك:

١. القول في الذات الإلهية وصفاته سبحانه:

مذهب الجاحظ في الذات الإلهية وصفاته سبحانه هو مذهب أكثر المعتزلة والمرجئة والخوارج وبعض الزيدية؛ في أن الله تعالى: حي لا بحياة وعالم لا بعلم؛ حيث يقول: (إننا نعتقِد أنّ لنا رَبّاً يخترع الأجسامَ اختراعاً، وأنّهُ حَيٌّ لا بحياة، وعالمٌ لا بعلم، وأنّه شيءٌ لا ينقسم، وليس بذِي طُول ولا عرْض ولا عُمق)(١٠٤).

ونحن نؤمن بأن لله ذاتًا لا تُشبهها الذوات، وصفاتٍ لا تشبهها الصفات، وأن أسماءه دالة دلالة قطعية على ما له -سبحانه- من صفات الكمال المطلق، ونثبت ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو أثبته له رسوله - صلى الله عليه وسلم - من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، وأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الذي اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل، فإنه قد عُلم بالشرع مع العقل أن الله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله(١٠٥).

٢. رأيه في صفة الكلام لله تعالى:

الجاحظ كغيره من المعتزلة القائلين بنفي الصفات، وتأويل ما لا يستطيعون إنكاره، ومن ذلك تأويل كلمات الله الواردة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ (لقمان: ٢٧)؛ بأنها ليست الكلام المؤلف من الحروف؛ وإنما هي النعم والأعاجيب التي بثها في مخلوقاته لتدل عليه وتشهد له بالألوهية المطلقة فيقول: (والكلماتُ في هذا الموضع ليس يُريد بها القولَ والكلامَ

(١٠٤) الحيوان، (٤/٩٠).
(١٠٥)شرح العقيدة الأصفهانية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص (٤١).

المؤلَّفَ من الحروف، وإنَّما يريد النِّعَم والأعاجيب والصفات وما أشبه ذلك، فإنَّ كلاًّ من هذه الفنون لو وقَف عليه رجلٌ رقيقُ اللسان، صافي الذهن، صحيحُ الفِكْر، تامُّ الأَدَاة؛ لما بَرِح أن تحسره المعاني، وتَغْمرَه الحِكَم!..)(١٠٦). **والحقيقة** أن هذه الأمور التي ذكرها هي من آيات الله تعالى وكلماته، إلَّا أننا نثبت أن الله تعالى متصف بصفة الكلام، وأنه لم يزل ولا يزال متكلماً سبحانه، شهد لنفسه بذلك فقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ (النساء: ١٦٤)، وقال: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ (التوبة: ٦)، فالآية واضحة في إثبات صفة الكلام، فالكلام يسمع والخلق يرى، ولو أراد الخلق لقال: حتى يرى خلق الله(١٠٧).

٣. عذاب الحيوان والأطفال:

وكان يقول: إنّ هذه الأبدان السبُعيّة والبهيمية لا تدخل الجنّة ولكنَّ الله عزَّ وجلّ ينقُل تلك الأرواح خالصةً من تلك الآفات فيركِّبها في أيِّ الصُّور أَحَبَّ.

ويرى أن الله لا يعذب أطفال المشركين إذ إن ذلك مخالف لعدل الله تعالى وهذا القول هو قول بعض علماء أهل السنة؛ إلا أن الجاحظ لم يبين موقفه فيهم هل هم من أهل الجنة كما يقول بعض من أهل السنة. أم يصيرهم الله تراباً كما نسب إليه بعض العلماء، قال الجاحظ: (وكيفَمَا دار الأمرُ في هذه الجَوَابات فإن أخسَّها وأشنَعها أحسَنُ مِن قولِ مَنْ زَعمَ أنّ الله تعالى يُعَذِّب بنار جهنَّمَ من لم يسخطه ولا يعقِلُ كيف يكون السخط، ومن العَجَب أنَّ بعَضهم يزعمُ أن الله تعالى إنما عذّبه ليغمَّ أباهُ! وإنما يفعل ذلك من لا يقدر على أن يُوصِلَ إليهم ضعف الاغتمام، وضعفَ الألم الذي ينالهم بسبب أبنائهم، فأمّا مَن يقدِرُ على إيصال ذلك المقدارِ إلى من يستحقه فكيف يوصله ويصرفه إلى من لا يستحقّه، وكيف يصرفُه عمَّن أسخطه إلى من لم يُسْخطه، هذا وقَد سمعوا قولَ الله عزّ وجلّ: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ

---

(١٠٦) الحيوان، (١/٢٠٩-٢١١).

(١٠٧) للاستزادة في معرفة ثبوت صفة الكلام لله تعالى ينظر: الغامدي؛ أحمد بن عطية بن علي، البيهقي وموقفه من الإلهيات، أصل الكتاب: رسالة دكتوراة من كليه الشريعة والدراسات الاسلامية -جامعة الملك عبد العزيز، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية -المدينة المنورة، ط: ٢، (٢٠٠٢م)، ص: ٢٠٣، وما بعدها.

لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ (المعارج: ١١–١٤)، وكيف يقولُ هذا القَوْلَ مَنْ يتلو القرآن)[١٠٨].

القول بالصرفة:

يؤكد الجاحظ مذهب المعتزلة القائلين بالصرفة، ويحشد أدلة كثيراً على ذلك نقتطف منها الآتي:

ما ذكره من عدم معرفة سليمان عليه السلام لوضع بلقيس ملكة سبأ مع أن الله تعالى أعطاه من الملك ما لم يعط أحداً من العالمين. وصرف الجن عن معرفة موت سليمان –عليه السلام-، وعدم الاهتداء لذلك، ففي القرآن الكريم (مسطورٌ أنّ سليمانَ بنَ داودَ غبَرَ حِيناً وهو ميّت معتمِداً على عصاه في الموضع الذي لا يُحْجَب عنه إنْسِيٌّ ولا جِنِّيٌّ، والشَّياطينُ منهُمْ المَكْدُودُ بالعَمَل الشديد، وَمِنْهُمْ المحبوسُ والمستعبد، وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ (سبأ: ١٣)، وقال: ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ (ص: ٣٧–٣٨)، وَأَنَّهُ غبَرَ كذلك حيناً وهو تُجاهَ أعيُنِهم فلا هُمْ عرَفُوا سجيَّةَ وُجوهِ الموتَى، ولا هو إذْ كان ميّتاً سقط سُقوطَ الموتى، وثبتَ قائِماً معتمداً على عصاه، وعصاه ثابتةٌ قائمةٌ في يده، وهو قابضٌ عليها، وليستْ هذه الصِّفَةُ صفَة موتانا، وقال: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ (سبأ: ١٤)، ونحنُ دونَ الشّياطينِ والجِنِّ في صِدْق الحسِّ ونُفوذِ البصر، ولوْ كُنَّا مِن بعضِ الموتى بهذا المكان لما خَفِي علينا أَمرُه، وكان أدنى ذلك أنْ نظنَّ ونرتاب، ومتى ارتابَ قومٌ وظَنُّوا وماجُوا وتكلموا وشاوروا؛ لَقِنُوا وثُبِّتُوا، ولا سيَّما إذا كانوا في العذاب، ورأوْا تَبَاشِيرَ الفرَج ولولا الصَّرْفة التي يُلقيها الله تعالى على قَلْبِ مَنْ أَحبَّ، ولولا أنّ الله يقدِرُ على أنْ يشغَلَ الأوهامَ كيف شاء، ويذكِّر بما يشاء، ويُنَسِّي ما يشاء؛ لما اجتمع أهلُ داره وقصْره وسُورِه ورَبَضِه وخاصَّتُه ومن يخدُمه من الجنّ والإنْس

(١٠٨) يقول ابن القيم رحمه الله: فإذا كان سبحانه لا يهلك القرى في الدنيا ويعذب أهلها إلا بظلمهم فكيف يعذب في الآخرة العذاب الدائم من لم يصدر منه ظلم. هـ. طريق الهجرتين ص٦٤٤.

والشَّياطين على الإطباق بأنَّه حَيٌّ، كذلك كان عندهم، فحدث ما حَدَثَ من موته، فلمَّا لم يشعُروا به كانوا على ما لم يزالوا عليه، فعِلمْنا أنَّ الجنَّ والشّياطينَ كانت تُوهِم الأغبياء والعَوَامَّ والحُشْوَة والسِّفلة أنَّ عندهما شيئاً من عِلْمِ الغيب، والشياطين لا تعلم ذلك فأراد الله أَنْ يكشِف من أمْرهم للجُهَّال ما كان كَشَفَه للعلماء)[١٠٩].

ما ذكره من قصة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام كيف ماتوا بالتيه، مع أن موسى عليه السلام نبي من الأنبياء، ومنطقة التيه كانت منطقة مألوفة لديهم ولكنَّ الله صَرَفَ أوهامَهم، ورفع ذلك الفَصْلَ مِن صدورهم[١١٠].

ما ذكره من صرف الجن عن استراق السمع، وصرف إبليس عن التوبة والندم على المعصية والإيمان، فيقول: (ومثل ذلك أَنّا قد علمْنا أنّ إبْليسَ لا يزالُ عاصِياً إلى يومِ البَعث؛ ولو كان إبْليسُ في حال المعْصِيَة ذَاكِراً لإخبارِ الله تَعالى أنَّه لا يزالُ عاصياً، وهو يَعلم أنّ خَبرَه صِدقٌ؛ كان محالاً أنْ تدعُوَه نفسُه إلى الإيمانِ ويطمَعَ في ذلك؛ مع تصديقِهِ بأنّه لا يختار الإيمانَ أبداً)[١١١].

وصرف كفار قريش عن معارضة القرآن الكريم مع قدرتهم على ذلك، فيقول: (وذكرنا من صَرْف أوهام العرَب عن محُاولة معارضة القرآن، ولم يأتوا به مضطرِباً، ولا مُلَفَّقاً، ولا مُستكرَهاً، إذا كان في ذلك لأهل الشَّغبِ متعلّق)[١١٢].

المطلب الثامن: **آراؤه الفقهية**

كما ذكرنا سابقاً أن الجاحظ مسوعة علمية له مشاركات في عدة مجالات، والفقه من تلك المجالات التي تكلم فيها، فمن آرائه الفقهية ما يأتي:

١. كراهة سب الدهر:

يرى الجاحظ كراهة سب الدهر لا تحريم ذلك، يفهم هذا من عنوان الموضوع "ما يكره من الكلام"، لكنه يوافق أهل أهل السنة في معنى حديث: (لا تسُبُّوا الدَّهرَ فإنَّ الدهر

(١٠٩) الحيوان، (٤/٩١-٩٢).
(١١٠) المصدر السابق، (٤/٨٧).
(١١١) الحيوان، (٤/٨٨).
(١١٢) المصدر السابق، (٦/٢٦٩)، للاستزادة ينظر: (٤/٧٧)، وما بعدها، و(٦/٢٦٩) وما بعدها.

هو الله)[113]، وأن المراد به أن الله تعالى هو خالق الدهر، ومصرف أموره، فمن سب الدهر فكأنما سب الله تعالى، قال الجاحظ: (وأما قوله: "لا تسبُّوا الدَّهرَ فإنَّ الدهر هو الله"، فما أحسن ما فسَّر ذلك عبد الرحمن بن مهديّ قال: وجهُ هذا عندَنا أنَّ القوم قالوا: ﴿ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﴾ (الجاثية: ٢٤)، فلما قال القوم ذلك قال النبيّ -صلى الله عليه وسلم-: "ذلك الله" يعني: أنَّ الذي أهلك القرونَ هو الله عزّ وجلَّ، فتوهم منه المتوهِّم أنَّه إنَّما أوقع الكلام على الدهر.

وقال يونس: وكما غلطوا في قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لحسَّان: (قُلْ ومَعَك رُوح القُدُس)[114] فقالوا: قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لحسَّان: قُلْ ومَعَك جِبريل؛ لأنَّ روح القدس أيضاً من أسماءِ جبريل، ألا ترى أنّ موسى قال: ليتَ أنّ رُوحَ الله مع كلّ أحد، وهو يريد العصمة والتوفيق. والنصارى تقول للمتنبِّي: معه روح دكالا، ومعه روح سيفرت. وتقول اليهود: معه روح بَعلزَبول؛ يريدون شيطاناً، فإذا كان نبياً قالوا: روحه روح القدس، وروحه روح الله، وقال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى: ٥٢)، يعني القرآن[115].

٢. رأيه في الاستطاعة ومتى تكون؟

هنا يؤكد الجاحظ مذهب المعتزلة في أن الاستطاعة شرط للفعل، وأن الله تعالى لا يكلف الإنسان فوق طاقته، وما ليس بمقدوره؛ فيقول: ومثل ذلك مثَّلَ بعضُ المخالفين في القدَر فإنّه سأل بعضَ أصحابنا فقال: هل تعرفُ في كتاب الله تعالى أنَّه يُخبِرُ عن الاستطاعة أنّها قبلَ الفعل؟

قال: نعم أتى كثيرٌ. مِنْ ذلك قولُه تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ (النمل: ٣٩)، قال المخالف: سألتك أنْ تخبرني عن الله فأخبرتني عن عفريتٍ لو كان بينَ يديَّ لبَزَقتُ في وجهه!

---

(١١٣) رواه مسلم، حديث رقم: (٢٢٤٦)، (١٧٦٣/٤).

(١١٤) رواه ابن حبان، حديث رقم: (٧١٤٦)، ((٩٦/١٦)، بلفظ: «إن روح القدس معك ما هاجيتهم»، وقال الألباني: صحيح.

(١١٥) الحيوان، (٣٤٠/١).

ومذهب أهل السنة في الاستطاعة؛ أنها قسمان: استطاعة مع الفعل؛ وهي الاستطاعة التي يجب بها الفعل كالتوفيق ونحوه، واستطاعة قبل الفعل؛ وهي الاستطاعة من جهة الصحة والوسع، والتمكين وسلامة الآلات، وبها يتعلق الخطاب، وهو كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)، (والذي قاله عامة أهل السنة: أن للعبد قدرة هي مناط الأمر والنهي، قد تكون قبله، لا يجب أن تكون معه، والقدرة التي بها الفعل لا بد أن تكون مع الفعل، لا يجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة.

وأما القدرة التي من جهة الصحة والوسع، والتمكن وسلامة الآلات؛ فقد تتقدم الأفعال. وهذه القدرة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا﴾ (آل عمران: ٩٧). فأوجب الحج على المستطيع، فلو لم يستطع إلاَّ من حج لم يكن الحج قد وجب إلاَّ على من حج، ولم يعاقب أحدا على ترك الحج! وهذا خلاف المعلوم بالضرورة من دين الإسلام.. ولا يلام من عدم آلات الفعل وأسبابه على عدم الفعل، وإنما يلام من امتنع من الفعل لتضييع قدرة الفعل، لاشتغاله بغير ما أمر به، أو لعدم شغله إياها بفعل ما أمر به)(١١٦).

٣. القول في تحريم الخنزير:

يرد الجاحظ على من يستفسر في سبب تحريم أكل الخنزير كله مع أن القرآن الكريم ذكر اللحم فقط؛ فيقول: (وسأل سائلون في تحريم الخنزير عن مسألةٍ، فمنهم من أراد الطّعن، ومنهم من أراد الاستفهام، ومنهم مَنْ أحبَّ أن يعرف ذلك من جهة الفُتيا إذْ كان قولُه خلافَ قولنا.

قالوا: إنَّمَا قال الله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ (المائدة: ٣)، فذكر اللَّحمَ دونَ الشّحم ودونَ الرَّأس ودونَ المخّ ودونَ العصَب ودون سائرِ أجزائه، ولم يذكره كما ذكر المَيْتة بأسرها، وَكذلك الدَّم؛ لأنَّ القول وقع على جملتهما، فاشتمل على جميع

(١١٦) شرح الطحاوية، مصدر سابق، ص: ٤٣٣، وما بعدها بتصرف.

خصالهما بِلفظٍ واحد، وهو العموم، وليس ذلك في الخنزير لأنّه ذكر اللّحم من بين جميع أجزائه، وليس بين ذِكْر اللَّحْم والعظْم فرق، ولا بينَ اللَّحْمِ والشَّحم فرق،..[117].

٤. الاستثناء في الحلف:

يقول الجاحظ: (وعجبت من ناسٍ ينكرون قولنا في الاستثناء وقد سمعوا الله عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ (القلم: ١٧–٢٠)، مع قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الكهف: ٢٣–٢٤)[118].

المطلب التاسع: رده على الشبهات والمطاعن حول القرآن الكريم

الجاحظ كغيره من العلماء الذين يقفون ضد الطاعنين على الإسلام من الملاحدة والزنادقة ومثيري الشبهات والشكوك حول الإسلام، وقد حاورهم كثيراً بردود علمية وقوية نذكر منها:

١. الشبهات والشكوك التي أثاروها حول قصة سليمان –عليه السلام- والهدهد:

حيث قالوا: كيف يتوعد حيواناً غير مكلف والتوعد والوعيد لا يكون إلا لمكلف، يرد عليهم بقوله: إنّ الله تعالى لم يقل: وتَفَقّدَ الطَّير فقال ما لي لا أرى هدهداً من عُرْض الهداهد، فلم يوقع قولَه على الهداهد جُملة، ولا على واحدٍ منها غير مقصودٍ إليه، ولم يذهب إلى الجنس عامَّة، ولكِنَّهُ قال: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ (النمل: ٢٠)، فأدخَلَ في الاسم الألفَ واللام فجعله معرفة، فدلَّ بذلك القصد على أنَّه ذلك الهدهدُ بعينه،..)[119].

(١١٧) الحيوان، (٤/٧٤-٧٧).
(١١٨) الحيوان، (٣/٤١٤).
(١١٩) الحيوان، (٤/٧٩-٨٥).

٢ـومن المطاعن: طعن الدهرية في ملك سليمان ومَلِكةِ سبأ

حيث قالُوا: (زعمتم أنَّ سُليمان سأل ربَّه فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ (ص: ٣٥)، وأنَّ الله تعالى أعطاه ذلك فملَّكه على الجنّ فضلاً عن الإنْس، وعلَّمه منطِق الطَّير، وسخَّر له الرِّيح، فكانت الجِنُّ له خَوَلاً، والرِّياحُ له مسخرة، ثمَّ زعمتم وهو إمّا بالشَّام، وإمَّا بسَوَادِ العِراق؛ أنَّه لا يعرف باليمن مَلِكَةً هذه صفتُها،.. قُلنا: إنّ الدُّنيا إذا خلاّها الله وتدبيرَ أهلها، ومجاريَ أمورِها وعاداتها، كان لعمري كما تقولون، ونحن نزعمُ أنَّ يَعْقوبَ بنَ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ كَانَ أنبَهَ أهْلِ زمانِه؛ لأنّه نبيٌّ ابنُ نبيٍّ، وكان يوسُف وزير مَلِكِ مصر من النَّباهة بِالموضع الذي لا يُدفَع، وله البُرُدُ، وإليهِ يرجع جوابُ الأَخبار، ثمَّ لم يعرِفْ يَعقوبُ مكانَ يوسُفَ، ولا يوسفُ مكانَ يَعقوبَ عَليهما السلام دهراً، من الدُّهور مع النَّباهةِ والقُدْرةِ واتِّصال الدار، وكذلك القولُ في موسى بنِ عمرانَ ومَنْ كَانَ معه في التِّيه فقد كانوا أمَّةً من الأمم يتَكَسَّعُونَ أربعين عاماً في مقدارِ فراسخَ يسيرةٍ ولا يهتدون إلى المخرج، وما كانت بلادُ التِّيه إلاّ من ملاعبهم ومُنْتَزَهاتهم، ولا يعدم مثلُ ذلك العسكرِ الأَدلاّءَ والجَمَّالين، والمُكارِينَ، والفُيُوجَ، والرُّسلَ، والتّجار، ولكنَّ الله صَرَفَ أوهامَهم، ورفع ذلك الفَصْلَ مِن صدورهم)[١٢٠].

٢. **ومن المطاعن طعنهم في قوله تعالى:** ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٣).

حيث قالوا: كيف يكون ذلك وليس بين أن تجيء في كلِّ هلال فرقٌ، ولا بينها إذا جاءت في رأس الهلال فرقٌ، ولا بينَها إذا جاءتْ في رأس السَّنَةِ فرق؟.. وقد أقرَرْنا بعجيبِ ما نرى من مطالع النُّجوم، ومن تناهي المدِّ والجزْر على قدر امتلاءِ القمر ونُقصانه وزيادته ومحاقه واستراره، وكلُّ شيءٍ يأتي على هذا النَّسقِ من المجارِي فإنَّمَا الآيةُ فيه لِلَّهِ وحدَه على وحدانيَّته. فإذا قال قائلٌ لأهل شريعةٍ، ولأهل مُرسًى من أصحابِ بحرٍ، أو نهرٍ، أو وادٍ، أو عينٍ، أو جدولٍ: تأتيكم الحِيتانُ في كلِّ سبت، أو قال: في كلِّ

(١٢٠) المصدر السابق، (٤/٨٥-٨٧).

رمضان، ورمضانُ متحوّلُ الأزمانِ في الشِّتاءِ والصيف والرَّبيعِ والخريفِ، والسَّبتُ يتحوَّل في جميع الأزمان، فإذا كان ذلك كانتْ تلك الأعجوبةُ فيه دالةً على توحيد الله تعالى، وعلى صِدقِ صاحب الخبَر، وأنَّه رسولُ ذلك المسخَّر لذلك الصِّنف، وكان ذلك المجيءُ خارجاً من النَّسق القائم، والعادةِ المعروفة، وهذا الفرقُ بذلك بَيِّنٌ والحمدُ لله(١٢١).

٣. **ومن مطاعنهم**: أن معجزة موسى لم تكن قلب العصى حية؛ وأن السحرة لو قلبوا حبالهم وعصيهم ذئاباً أو نموراً لانقلبت ذئباً أو نمراً فلم يكن ذلك لخاصَّةَ في بَدَنِ الحيةِ؟!

قال الجاحظ: قلنا: الدّليل على باطل ما قلتم؛ قَوْلُ الله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ (طه: ١٧-٢٠)، وقال الله عزَّ وجلّ: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (النمل: ٧)، إلى قوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ (النمل: ١٠)، فقلبت العصا جانًّا، وليس هناك حبالٌ ولا عِصِيٌّ. وقال الله: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (الشعراء: ٣٠-٣٢)، فقلْبُ العصا حَيَّةً كان في حالاتٍ شَتَّى، فكان هذا مِمّا زاد في قدْر الحية وقد ورد أنه -صلى الله عليه وسلم- قال في دعائه أن لا يميتَه اللهُ لَديغاً، وتأويل ذلك: أنَّه -صلى الله عليه وسلم- ما اسْتَعَاذَ باللَّه من أن يموتَ لديغاً(١٢٢)، وأنْ تكونَ مِيتته بأكْلِ هذا العدوِّ؛ إلاَّ وهو من أعداءِ اللَّهِ، بل من أشدِّهم عداوة، وقال النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-: (أشَدُّ النّاس عذاباً يومَ القيامةِ مَنْ قتلَ نَبِيًّا أو قَتَلَهُ نبيٌّ)(١٢٣)، كأنَّهُ كان في المعلوم أنَّ النبيَّ لا يقتلُ أحدًا، ولا يتفَّقُ ذلك

---

(١٢١) الحيوان، (٤/١٠٣-١٠٤).

(١٢٢) الحديث: عن أبي اليسر، أن رسول -صلى عليه وسلم -كان يدعو: «اللهم إني أعوذ بك من الهدم، وأعوذ بك من التردي، وأعوذ بك من الغرق، والحرق، والهرم، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبرا، وأعوذ بك أن أموت لديغا»، قال الألباني: حديث صحيح، ينظر: سنن أبي داود، مصدر سابق، حديث رقم: (١٥٥٢)، (٢/ ٩٢).

(١٢٣) رواه البزار في صحيحه، حديث رقم: (١٧٢٨)، (٥/١٣٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٠٠٠).

إلاَّ في أشْرار الخلْق، ويدلُّ على ذلك الذي اتفَّق من قتل أُبيِّ بنِ خلفٍ بيده، والنَّضر بن الحارث، وعُقبة بن أبي مُعيط، ومعاوية بن المغيرة بن أبي العاصي صبراً(١٢٤).

٤. طعن ناس من الملحدين في آية النَّحل:

وقد طعنَ ناسٌ من الملحدين وبعضُ من لا علم له بوجوه اللغةِ وتوسُّع العرب في لُغتها وفَهْمِ بعضها عن بعض بالإشارة والوحي؛ فقالوا: قد علمْنا أن الشمع شيءٌ تنقله النحل مما يسقط على الشجر فَتَبني بيوت العسل منه، ثم تنقل من الأشجار العسل الساقط عليها، كما يسقط التَّرَنْجُبين، والمنُّ، وغير ذلك، إلا أن مواضع الشمع وأبدانه خفيٌّ، وكذلك العسل أخفى وأقلّ، فليس العسل بقيءٍ ولا رجْع، ولا دخَلَ للنحلة في بطْنٍ قطُّ. وفي القرآن قول الله عز وجل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٦٨–٦٩). ولو كان إنما ذهبَ إلى أنه شيءٌ يُلتَقَطُ من الأشجار كالصُّموغِ، وما يتولد من طِباع الأنداء والأجْواء والأشجارِ إذا تمازجت؛ لما كان في ذلك عجبٌ إلاَّ بمقدار ما نجده في أمور كثيرة.

قلنا: قد زعم ابن حائط وناسٌ من جُهَّالِ الصُّوفيَّة: أن في النحل أنبياء، لقوله عز وجل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾، وزعموا أن الحَوارِيِّينَ كانوا أنبياء؛ لقوله عز وجل: ژ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ژ (المائدة: ١١١). قلنا: وما خالف إلى أن يكون في النحل أنبياء، بل يجبُ أن تكون النحل كلها أنبياء لقوله عز وجل على المخرج العامّ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾، ولم يخصّ الأمهات والملوكَ واليعاسيب بل أطلقَ القول إطلاقاً. وبعدُ: فإن كنتم مسلمين فليس هذا قولَ أحد من المسلمين، وإلا تكونوا مسلمين فلِمَ تجعلون الحجة علي نبوة النحل كلاماً هو عندكم باطل قول في المجاز.

(١٢٤) الحيوان، (١٥٩/٤-١٦١).

وأما قوله عز وجل: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾، فالعسل ليس بشرابٍ، وإنما هو شيء يحوَّلُ بالماء شراباً، أو بالماء نبيذاً، فسماه كما ترى شراباً إذ كان يجيء منه الشراب. وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا: جاءت السماءُ اليوم بأمر عظيم. وقد قال الشاعر:

إذا سقط السماءُ بأرْضِ قوْمٍ رعيناه وإن كانوا غِضَابَا

ومتى خرج العسلُ من جهةِ بطونها وأجوافها فقد خرج في اللغة من بطونها وأجوافها، ومَنْ حمل اللغة علي هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلاً ولا كثيراً، وهذا الباب هو مفخرُ العربِ في لغتهم، وبه وبأشباهه اتسعت، وقد خاطبَ بهذا الكلام أهل تِهامة وهُذيلاً وضواحِيَ كِنانة، وهؤلاء أصحابُ العسل، والأعرابُ أعرَف بكل صَمْغَةٍ سائلة، وعَسلة ساقطة، فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب، أو طعنَ عليه من هذه الحجة!([١٢٥]).

٥. مطاعنهم في تشبيه شجر النار برؤوس الشياطين:

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ (الصافات: ٦٤–٦٥)، قال أهل الطَّعن والخلاف: كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نرَه فنتوهَّمه، ولا وُصِفت لنا صورته في كتابٍ ناطق، أو خبر صادق، ومخرج الكلام يدلُّ على التخويف بتلك الصُّورة والتفزيع منها، وعلى أنّه لو كان شيءٌ أبلغَ في الزَّجر من ذلك لذكَرَه؛ فكيف يكون الشَّأن كذلك والناس لا يفزعون إلاّ من شيء هائل شنيعٍ قد عاينوه، أو صوّره لهم واصفٌ صدوقُ اللسان، بليغٌ في الوصف، ونحن لم نعاينها، ولا صوَّرها لنا صادق، وعلى أنَّ أكثر الناس من هذه الأمم التي لم تعايشْ أهل الكتابين وحَمَلَة القرآن من المسلمين، ولم تسمع الاختلاف؛ لا يتوهَّمون ذلك، ولا يقفون عليه، ولا يفزعون منه، فكيف يكون ذلك وعيداً عاماً.

قلنا: وإن كنّا نحن لم نر شيطاناً قطّ، ولا صوّر رؤوسها لنا صادقٌ بيده، ففي إجماعهم على ضرْب المثل بقُبح الشيطان؛ حتَّى صاروا يضعُون ذلك في مكانين: أحدهما أن يقولوا: لهو أقبح من الشيطان.

---

(١٢٥) الحيوان، (٤٢٣/٥)، وما بعدها.

والوجه الآخر: أن يسمَّى الجميلُ شيطاناً على جهة التطيُّر له، كما تُسمَّى الفرسُ الكريمةُ شَوهاء، والمرأة الجميلة صَمّاء، وقرناء وخَنْساء وجرباء وأشباه ذلك؛ على جهة التطيُّر له، ففي إجماع المسلمين والعرب وكلِّ من لقيناهُ على ضرْب المثل بقُبْح الشيطان؛ دليلُ على أنه في الحقيقة أقبحُ من كل قبيح.

والكتابُ إنَّما نزل على هؤلاء الذين قد ثبّت في طبائعهم بغاية التثبيت. وكما يقولون: لهو أقبحُ من السحر، فكذلك يقولون: كما قال عمر بن عبد العزيز لبعض من أحسنَ الكلام في طلب حاجته: هذا والله السِّحر الحلال.

وكذلك أيضاً ربّما قالوا: ما فلانٌ إلا شيطان على معنى الشَّهامة والنَّفاذ وأشباه ذلك[١٢٦].

---

(١٢٦) المصدر السابق، (٢١١/٦)، وما بعدها.

الخاتمة:

وبعد هذه الرحلة الطويلة التي قضيناها مع الجاحظ في كتابي: الحيوان والبيان والتبيين، نلحظ من الجاحظ استدلاله بالآيات لا على سبيل التفسير إنما هي بمثابة الشاهد والدليل، وهي مبثوثة في كتابه ومتفرِّقة.

كما أنه فسّر عدداً من الآيات المفردة –وإن كان أكثر من النقل في هذا الجانب عن شيخه النظام– إلا إن ذلك واضح في كتابه.

والله وحده الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

أهم نتائج البحث:

يمكننا أن نخلص لذكر أهم النتائج التي توصلنا إليها في هذا البحث وهي:

١. يعتبر الجاحظ من العلماء الذين تحدثوا بالتفسير الموضوعي، إذ يقوم بحشد الآيات التي تدعم كلامه، وتؤيد رؤاه التفسيرية والفقهية واللغوية وغيرها.

٢. اعتمد الجاحظ في تفسيره للآيات القرآنية على الحديث الشريف وأقوال الصحابة والتابعين، كما رد بعض أقوالهم التي تخالف النص أو تخالف العقل.

٣. لا يعتبر كتابا: الحيوان والبيان والتبيين من كتب التفسير الخالص الذي نعرفه في عصرنا الحالي، بل يمكن اعتبارهما من الكتب التي اشتملت في طياتها على التفسير؛ سواء: التفسير الموضوعي أو التفسير لبعض آيات القرآن حسب ما تقتضيه الحاجة.

٤. يعتبر الجاحظ من رؤوس المعتزلة وله مدرسة مستقلة سميت باسمه.

٥. يعتبر الجاحظ موسوعة علمية في جميع المجالات العلمية والفكرية والثقافية والأدبية واللغوية والفلسفية.

٦. شنع الجاحظ على الطاعنين ضد الإسلام ورد عليهم بردود علمية قوية.

٧. عاش الجاحظ في أزهى عصور الإسلام في العلم والتأليف، مما جعله يصقل موهبته، ويشحذ همته في التأليف والإبداع.

التوصيات والمقترحات:

١. يوصي الباحث بمزيد من الدراسات حول شخصية الجاحظ من الناحية التفسيرية والفقهية والعلمية.

٢. إخراج كتاب مستقل يشمل بالبحث والنقد مرويات الجاحظ وآراءه في التفسير.

وفي الختام فهذا البحث يعتبر نواة في هذا المجال وهو بحاجة إلى مزيد من البحث والتحليل.

والله أسأل أن يتقبل منا ما كان صالحاً، وأن يتجاوز عنا ما كان سيئاً، وأن يعفو عن الزلل ويجبر النقص، ويستر العيب، إنه جواد كريم، وصلى الله على سيد الخلق أجمعين، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع:

١. ابن أبي العز الحنفي؛ محمد بن علاء الدين الأذرعي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: جماعة من العلماء، تخريج: ناصر الدين الألباني، دار السلام للطباعة والنشر التوزيع والترجمة، ط: ١، (٢٠٠٥م).

٢. ابن حبان؛ محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة –بيروت، ط: ٢، (١٩٩٣م).

٣. ابن حنبل؛ أحمد؛ مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالةبيروت، ط: ٢، (١٩٩٩م).

٤. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ولي الدين، مقدمة ابن خلدون، مكتبة لبنان، (١٨٥٨م).

٥. ابن خلكان؛ شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، أبو العباس، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، (١٩٠٠م).

٦. ابن كثير؛ إسماعيل بن عمر؛ أبو الفداء، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي –بيروت، ط: ١، (١٩٨٨م).

٧. ابن منظور؛ محمد بن مكرم، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: روحية الناحاس وآخرين، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، –دمشق، ط: ١، (١٩٨٤م).

٨. ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى القاسمي، أبو عبد الله، العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة للطباعة –بيروت، ط: ٣، (١٩٩٤م).

٩. أبو القاسم؛ الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد كيلاني، دار المعرفة لبنان، (د. ت).

١٠. الاسفرائيني؛ طاهر بن محمد، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، تحقيق: كمال يوسف الحوت، عالم الكتب -بيروت، ط: ١، (١٩٨٣م).

١١. الأصفهاني؛ علي بن الحسين؛ أبو الفرج، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر بيروت، ط: ٢، (د. ت).

١٢. الألباني؛ محمد ناصر الدين، صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف – الرياض، ط: ٥، (د. ت).

١٣. الألباني؛ محمد ناصر الدين، صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، (د. ت).

١٤. الألوسي؛ نعمان بن محمود، أبو البركات، جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، مطبعة المدني، (١٩٨١م).

١٥. الآمدي؛ علي بن محمد، أبو الحسن، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: سيد الجميلي، دار الكتاب العربي –بيروت، ط: ١، (١٤٠٤ه).
١٦. البخاري، محمد بن إسماعيل؛ أبو عبد الله الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط: ١، (١٤٢٢ه).
١٧. البغا؛ مصطفى ديب، ومستو؛ محيي الدين ديب، الواضح في علوم القرآن، دار الكلم الطيب، ودار العلوم الانسانية –دمشق، ط: ٢، (١٩٩٨م).
١٨. البغدادي؛ عبد القاهر بن طاهر بن محمد؛ أبو منصور، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، دار الآفاق الجديدة –بيروت، ط: ٢، (١٩٧٧م).
١٩. التميمي؛ أحمد بن علي بن المثنى الموصلي؛ أبو يعلى، مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث –دمشق، ط: ١، (١٩٨٤م.
٢٠. الجاحظ؛ عمرو بن بحر، أبو عثمان، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي –القاهرة، ط: ٧، (١٩٩٨م).
٢١. الجاحظ؛ عمرو بن بحر؛ أبو عثمان، كتاب: الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل –بيروت، (١٩٩٦م).
٢٢. الجديع؛ عبد الله بن يوسف بن عيسى بن يعقوب، المقدمات الأساسية في علوم القرآن، مركز البحوث الإسلامية ليدز –بريطانيا، ط: ١، (٢٠٠١م).
٢٣. الجويني؛ مصطفى الصاوي، مناهج التفسير، تاريخ النشر ١٣٩١هـ ١٩٧١م.
٢٤. الحراني؛ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، أبو العباس، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، تحقيق: محمد عبد الرحمن قاسم، مطبعة الحكومة –مكة المكرمة، ط: ١، (١٣٩٢ه).
٢٥. الحسيني؛ محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق، أبو الفيض، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، (د. ت).
٢٦. الحلبي؛ نور الدين محمد عتر، علوم القرآن الكريم، مطبعة الصباح –دمشق، ط: ١، (١٩٩٣م).
٢٧. الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي، تاريخ بغداد، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي –بيروت، ط: ١، (٢٠٠٢م).
٢٨. الداوودي؛ محمد بن علي، شمس الدين، طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية –بيروت، (د. ت).
٢٩. الذهبي؛ محمد بن أحمد بن عثمان، شمس الدين، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي –بيروت، ط: ١، (١٩٨٧م).
٣٠. الذهبي؛ محمد بن أحمد بن عثمان، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الارنؤوط، مؤسسة الرسالة –بيروت، ط: ٩، (١٩٩٣م).

٣١. الزحيلي؛ وَهْبَة بن مصطفى، الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر –دمشق، ط: ٤، (د. ت).
٣٢. الزرعي؛ محمد بن أبي بكر أيوب، أبو عبد الله، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، تحقيق: على محمد الدخيل، دار العاصمة –الرياض، ط: ٣، (١٩٩٨م).
٣٣. الزرقاني؛ محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى الحلبي وشركاه، ط: ٣، (د. ت).
٣٤. الزركشي؛ بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ط: ١، (١٩٥٧م).
٣٥. السجستاني؛ أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا –بيروت، (د. ت).
٣٦. الشاطبي؛ إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، الاعتصام، تحقيق ودراسة: هشام بن إسماعيل الصيني، وآخرين، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، - السعودية، ط: ١، (٢٠٠٨م).
٣٧. الشهرستاني؛ محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة -بيروت، (١٤٠٤ه).
٣٨. الصفدي؛ صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث –بيروت، (٢٠٠٠م).
٣٩. الصلابي؛ علي محمد محمد، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع –بيروت، ط: ٢، (٢٠٠٨م).
٤٠. الطحاوي؛ أحمد بن محمد بن سلامة، أبو جعفر، شرح مشكل الآثار، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة –بيروت، (١٩٨٧م).
٤١. العسقلاني؛ أحمد بن علي بن حجر، أبو الفضل، لسان الميزان، تحقيق: دائرة المعرف النظامية –الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات –بيروت، ط: ٣، (١٩٨٦م).
٤٢. العسكري؛ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية –بيروت، (١٩٨٦م).
٤٣. العكري؛ عبد الحي بن أحمد بن محمد، شذرات الذهب شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط، دار بن كثير –دمشق، (١٤٠٦ه).
٤٤. عيسى؛ أحمد بن إبراهيم، توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي –بيروت، ط: ٣، (١٤٠٦ه).
٤٥. العيص، زيد عمر عبدالله، التفسير الموضوعي التأصيل والتمثيل، الناشر: دار مودة بالقاهرة، ط: ٢.

٤٦. الغامدي؛ أحمد بن عطية بن علي، البيهقي وموقفه من الإلهيات، أصل الكتاب: رسالة دكتوراة من كليه الشريعة والدراسات الاسلامية -جامعة الملك عبد العزيز، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية -المدينة المنورة، ط: ٢، (٢٠٠٢م).
٤٧. الفراء؛ محمد بن الحسين بن محمد بن خلف؛ القاضي أبو يعلى، العدة في أصول الفقه، تحقيق: أحمد بن علي بن سير المباركي، (د. ن)، ط: ٢، (١٩٩٠م).
٤٨. الفيروز أبادي؛ محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة – بيروت، (د. ت).
٤٩. القرطبي؛ محمد بن أحمد بن أبي بكر؛ أبو عبد الله، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط: ٢، (١٩٦٤م).
٥٠. القشيري النيسابوري؛ مسلم بن الحجاج؛ أبو الحسن، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت، (د. ت).
٥١. القطان؛ مناع خليل، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط: ٣، (٢٠٠٠م).
٥٢. القيرواني؛ الحسين بن رشيق؛ أبو علي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، للنشر والتوزيع الطباعة –بيروت، ط: ٥، (١٩٨١م).
٥٣. محمود حافظ، كلماتي مع الخالدين، مجمع اللغة العربية -القاهرة، (٢٠٠٦م).
٥٤. المسعودي، علي بن الحسين بن علي؛ أبو الحسن، مروج الذهب، سليمان بن بنين تقي الدين؛ أبو الربيع، إتفاق المباني وافتراق المعاني، تحقيق: يحيى عبد الرؤوف جبر، دار عمار -عمان، ط: ١، (١٩٨٥م).
٥٥. الملطي؛ محمد أحمد عبد الرحمن؛ أبو الحسين، التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث –القاهرة، ط: ٢، (١٩٧٧).
٥٦. الهيثمي؛ نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر – بيروت، (١٤١٢هـ).